شَرحُ

أَسْبَابِ انْشِرَاحِ الصُّدُورِ

مِنْ

زَادِ المَعَادِ فِيْ هَدْيِ خَيْرِ العِبَاد

تأليفُ الإمامِ

أَبِيْ عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدِ ابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّة

رَحِمَهُ اللهُ

شَرح

أ.د. عَارِف بن مَزْيَدِ السُّحَيْمِي

أسباب انشراح الصدور

من كتاب:

(زاد المعاد في هدي خير العباد)

للعلامة ابن القيم رحمه اللّه

شرح

عارف بن مزيد السحيمي

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيِّئات أعمالنا، مَنْ يهده الله فلا مضلَّ له، ومَنْ يضلل فلا هادي له، وأشهد أنْ لا إله إلَّا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمّدًا عبده ورسوله ﷺ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١] ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]، أمَّا بعد:

فإنَّ أعظم نعمة يمنُّ الله تعالى بها على عبده نعمةُ الهداية للصراط المستقيم، وسلامةِ المعتقد وحسن السير إلى تعالى، فهي أَجَلُّ النِّعم وأعظَمُها، لا يُساويها ولا يُماثلُها نعمة، وكلُّ ما بالإنسان من نعمة فهي دون نعمة الهداية، وأعظمُ مصيبة يصاب بها الإنسان هي مصيبة الضلال وكلُّ مصيبة مهما كبرت وعظمت فهي دون مصيبة الضلال.

وأسباب الهداية والضلال جاء بيانها في كتاب الله عزَّوجلَّ، كما قال الله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ).

فاللهُ تعالى أنزل على نبيه محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم الكتابَ

تبياناً للناس بالحقِّ، فَمَنِ اهْتَدَى واستقام على طاعة الله تعالى فإنَّ نفع ذلك يعود إلى نفسه، من انشراح صدره، وهو ارتياحه وطمأنينته وزوال المنغِّصات والمكدِّرات عنه، وبقاؤه سعيدًا في حياة كريمة وطيِّبةٍ.

وإذا انشرح الصدر أقبل العبد على فعل مصالحه الدينية والأخروية، وحصلت له ثمرات الاستقامة على الطاعة، وَمَنْ ضَلَّ بعدما تبين له الهدى فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَى نفسه لا يضرُّ اللهَ شيئًا، فتجده ضيِّق الصدر قد انتابته الهموم والغموم والأحزان والهواجس والوساوس فيبقى المسكين أسيرًا لكيد الشيطان، مرتهنًا بقوة تلبيسه عليه، وبضعف مجاهدته له، فلا همَّ له في دنياه إلا إشباع غرائزه الجنسية البهيمية، مع تكاسله عن الطاعات فتفوت عليه مصالح دينه ودنياه.

وهذه الآثار السيئة لضيق الصدر قد تطول مدتها مع قوم وتقصر مع آخرين بحسب تقصيرهم في جنب الله تعالى.

وعلينا أن نعلم: أنَّ انشراح الصدر لا يُنال إلا بتوفيق من الله فعلى العبد أن يكثر اللجأ إلى الله تعالى أن يمنَّ عليه بنعمة التوفيق للهداية مع قيامه بفعل أسبابها، وبذلك يحصل له انشراح الصدر،

وقد جاء في صحيح مسلم عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (قُلْ: اللَّهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي وَاذْكُرْ بِالْهُدَى هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ وَالسَّدَادِ سَدَادَ السَّهْمِ)، والهدى: هنا الرشاد، وسدادُ العمل: تقويمه على السنَّة.

فأمره بِأَن يسْأَل الله الْهِدَايَة والسداد وَأَن يكون فِي ذكره وخاطره أَن الْمَطْلُوب هِدَايَة كهداية من ركب متن الطَّرِيق وَأخذ فِي الْمنْهَج الْمُسْتَقيم وسدادًا كسداد السهْم نَحْو الْغَرَض.

وقد ذَكَرَ العلَّامةُ ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابهِ: ((زاد المعاد)) فصلاً في هَدْيِهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي صَدَقَةِ التّطَوّعِ ومما قَالَ فيه: "وَكَانَ هَدْيُهُ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَدْعُو إلَى الْإِحْسَانِ وَالصّدَقَةِ وَالْمَعْرُوفِ وَلِذَلِكَ كَانَ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَشْرَحَ الْخَلْقِ صَدْرًا وَأَطْيَبَهُمْ نَفْسًا وَأَنْعَمَهُمْ قَلْبًا فَإِنَّ لِلصّدَقَةِ وَفِعْلِ الْمَعْرُوفِ تَأْثِيرًا عَجِيبًا فِي شَرْحِ الصّدْرِ وَانْضَافَ ذَلِكَ إلَى مَا خَصّهُ اللّهُ بِهِ مِنْ شَرْحِ صَدْرِهِ بِالنّبُوّةِ وَالرّسَالَةِ وَخَصَائِصِهَا وَتَوَابِعِهَا وَشَرْحِ صَدْرِهِ حِسّا وَإِخْرَاجِ حَظّ الشّيْطَانِ مِنْهُ "، ثم ذكر تسعة من الأسباب المؤدية إلى شرح الصدور، فنشرع في قراءتها والتعليق المختصر عليها.

قال المؤلف رحمه الله:

فصل في أسباب شرح الصدور وحصولها على الكمال له ﷺ.

الشرح:

الأسبابُ: جمع سبب، والسبب في لغة العرب: كلُّ شيءٍ يُتوصل به إلى غيره.

ويدخل في ذلك: فعل الطاعات، فهي أسباب توصل إلى حصول انشراح الصدر.

والشرع قد رتَّب الآثار على أسبابها، ومن ذلك: الآثار التي يجنيها العبد من الأنس والسرور والطمأنينة والسكون وانشراح الصدر هي آثار تحصل للعبد إذا فعل أسباب انشراح الصدر، فَفِعْلُ الأسباب الشرعية، موصلٌ بعد فضل الله تعالى على العبد إلى رضوان الله تعالى وجنته، وفعلُ السبب ليس له تأثيرٌ مستقلٌ عن قدرة الله جل وعلا، وإنما هو مرتبط بمشيئة الله وقدرته فما شاءه الله كان، وما لم يشأه لم يكن، ولو اتُخِذَتِ الأسباب؛ لأنَّ تأثير السبب مرجعه إلى الرب جل وعلا، فلا يلتفت العبد إلى السبب كليًّا، وإنما يأخذ بالأسباب ويفوض أمره إلى الله تعالى، ومن ذلك فعل الطاعات التي جعلها الشارع سببًا لانشراح الصدر، فيجب فعلها؛ لأنَّ الشرع جعلها أسبابًا لانشراح الصدر.

والتوكُّل على الله تعالى في تحصيل مرضاته، وفي فعل المستحبات والواجبات، هو أحد نوعي التوكل، والتوكل على الله تعالى واجب

لايجوز صرفه لغير الله تعالى، كما قال الله عزَّ وجل: (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين)، وهذا النوع من أنواع التوكل هو توكلُ الخاصَّةِ من عباد الله تعالى.

وعبادة التوكُّل: خالف فيها بعض الأصناف من الناس، فالصوفيّة يثبتون الأسبابَ، لكن لا يأخذون بها، ويقولون: لئلا يلتفت القلب إليها، فهم قد أعرضوا عن الأسباب بالكلية، والجبرية ينفون تأثير الأسباب بالكلِّية، فجعلوا الأسباب مجرّدَ علامات يحصل الشيء عندها لا بها، وهذا مبني على أصلٍ عندهم، وهو أنَّ الله ﷻ لم يخلق شيئًا سببًا، والعقلانيون المادّيون، يلتفتون إلى الأسباب بالكلية.

قال ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين: (وأجمع القوم على أنَّ التوكُّل لا ينافي القيام بالأسباب، فلا يصح التوكُّل إلَّا مع القيام بها، وإلا فهو بطالةٌ وتوكّلٌ فاسد».

ثم قال: (**شرح الصدور**)، والشرح حقيقته: فصل أجزاء اللحم بعضها عن بعض، ومنه الشريحة للقطعة من اللحم، ثم أطلق الشرح على رضى النفس بالحال فأصله استعارة ناشئة عن إطلاق لفظ الضيق وما تصرف منه على الإحساس بالحزن والكمد فجُعل إزالة ما في النفس من حزن مثلُ شرح اللحم.

والصدور جمع صدر، وهو: الجزء الممتد من أسفل العنق إلى فضاء الجوف وسمي القلب صدرا لحلوله به.

فشرح الصدر هو: فتح الصدر ورضى النفس بالحال، ويكون ذلك بإذهاب ما يصدُّ المرء عن إدراك الحقِّ.

والله تعالى فتح صدر نبيه ﷺ للهدى والمعرفة بإذهاب الشواغل التي تصدُّ عن إدراك الحق، فأسباب شرح الصدور حصلتْ على وجه الكمال البشري للنبي ﷺ ، كما قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)، وهذا استفهام بمعنى التَّقرير، يعني: قد شرحنا لك صدرك.

قال ابنُ جريرٍ الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، مذكِّرُهُ آلاءَهُ عنده، وإحسانَه إليه، حاضًّاً له بذلك على شكره، على ما أنعم عليه، ليستوجب بذلك المزيد منه: (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ) يا محمد، للهدى والإيمان بالله ومعرفة الحقِّ (صَدْرَكَ) فنلِّينُ لك قلبك، ونجعلُه وعاءً للحكمة).

وقَالَ الحافظ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: (يعني: أَمَا شَرَحْنَا لكَ صَدْرَكَ، أي: نَورنَاهُ وجَعْلنَاهُ فَسيحًا رَحيبًا وَاسِعًا كَقَولِهِ: (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإسْلامِ) [الأنعام: ١٢٥].

فالله تعالى قد شرح صدر نبيه ﷺ لدينه، وحبَّبه إليه، وشرح صدور أصحابه كذلك، وحبَّب إليهم الإيمان، وزيَّنه في قلوبهم، فصاروا قادةً في الهدى، تبعًا لنبيهم عليه الصلاة والسلام.

قال المؤلف رحمه الله:

فأعظم أسباب شرح الصدر: التوحيد، وعلى حسب كماله وقوته وزيادته يكون انشراح صدر صاحبه، قال الله تعالى: (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه) [الزمر: ٢٢] [الزمر ٢٢]، وقال تعالى: (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقًا حرجًا كأنما يصعد في السماء) [الأنعام: ١٢٥] [الأنعام ١٢٥].

فالهدى والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر، والشرك والضلال من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه.

الشرح:

أعظم أسباب شرح الصدر: توحيد الله تعالى وإخلاص الدِّين له، ويدخل فيه الإيمان، فالعبد إذا أرد انشراح صدره فعليه بالعناية بالتوحيد الذي هو الغاية التي خلق الله تعالى الخلق من أجلها، كما قال سبحانه: (وما خلقت الجنَّ والإنس إلا ليعبدون)، فمن كان من أهل التوحيد انقاد لفعل الطاعات بنفسٍ طيبةٍ، ونفسٍ مؤمنةٍ وراغبةٍ، وكلما كان العبد أعظم تحقيقًا للتوحيد كان ذلك أتمَّ في انشراح صدره وراحة قلبه، وطمأنينة نفسه.

والتوحيد في إطلاقه الشرعيّ العامّ معناه: إفراد الله تعالى بما يختص به من الأسماء، والصفات، والألوهية، والربوبية.

فالتوحيد عند الإطلاق يدخل فيه أنواع التوحيد الثلاثة:

توحيد الربوبية: وهو إفرادُ الله تعالى بأفعاله، كالخَلق والرَّزق والإحياء والإماتة والتصرُّف في الكون، وغير ذلك من أفعال الله التي هو مختصٌّ بها، لا شريك له فيها.

وتوحيد الألوهية وهو: إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة.

وتوحيد الأسماء والصفات، ويكون ذلك باعتقاد انفراد الرب جلَّ جلاله بالكمال المطلق من جميع الوجوه بنعوت العظمة، والجلالة والجمال التي لا يشاركه فيها مشارك بوجه من الوجوه.

وذلك: بإثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ من جميع الأسماء والصفات، ومعانيها وأحكامها الواردة في الكتاب والسنة، على الوجه اللائق بعظمته وجلاله، مِنْ غيرِ نفيٍ لشيءٍ منها، ولا تعطيل ولا تحريف ولا تمثيل، ونفي ما نفاه عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله ﷺ من النقائص والعيوب، وعن كلِّ ما ينافي كماله.

والتوحيد يضعف ويقوى في نفس العبد، ويزيد وينقص، فكلما قوي توحيد العبد ازداد صدر العبد انشراحًا وكلما ضعف التمسك الصحيح بالتوحيد ضعف انشراح الصدر.

وإليكم بعض الأمثلة التي تبيِّن تفاضل الناس في التوحيد والإيمان قوة وضعفًا، ولهذا التفاضل أثرٌ في قوة انشراح الصدر وضعفه:

أولًا: الناس يتفاضلون في إيمانهم المجمل والمفصَّل فبعضُ النَّاس إيمانه إيمان تفصيلي يورِّث عند العمل قوة الانشراح في الصدر، وبعضهم إيمانه إيمان مُجمل، فلا يستوي في انشراح الصدر مع صاحب العمل

بالإيمان التفصيلي.

مثال ذلك: تفاصيل مسائل توحيد الأسماء والصفات، لا يعرفها أكثر العامة، أما أهل العلم فإنهم يعرفونها معرفةً تفصيلية، فإيمانهم إذا قاموا بالعمل بما علموه أكثر من إيمان الذي عَلِمَهُ علمًا إجماليًا.

فالإيمان التفصيلي بتوحيد الأسماء والصفات يثمر العمل والانقياد للشريعة بنفس مطمئنة، ويثمر دوام الخشية لله والقربَ منه، وكل هذا من أسباب انشراح الصدر، بل إنَّ عبادة الله تعالى على الوجه الأكمل مبنية على العلم بأسمائه وصفاته، إذ لا يمكن لأحد أن يعبد الله تعالى على الوجه الأكمل حتى يكون على علم بأسماء الله تعالى وصفاته، ليعبده على بصيرة.

قال ابن القيم رحمه الله: (فكلما كان العبد بأسماء الرب وصفاته أعلم كان بالله أعرف، وله أطلب، وإليه أقرب، وكلما كان لها أنكر كان بالله أجهل، واليه أكره، ومنه أبعد).

ثانيًا: النَّاس يتفاضلون باعتبار العلم بما جاء به الرسول ﷺ، فمنهم من هو صاحب علم وتصديق، ومِنْهُم مَنْ عنده جهلٌ بالشرع وربما يُنكر أمورًا لا يعلم أنها من الشرع، ثم يتبين له بعد ذلك صدقها، فالعبد الذي يعرف تفاصيل مسائل الاعتقاد ويعمل بها إيمانه أكمل ممن علم وقصَّر في جانب العمل.

ثالثًا: يتفاضل النَّاس في أعمال القلوب تفاضلًا عظيمًا، مثل: محبة الله جل وعلا، وخشيته، وخوفه، ورجائه، والذل، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والرغبة، والرهبة، ونحو ذلك، فالعلماء خيرٌ من غيرهم

في هذا الباب، ولهذا قال الله جل وعلا في شأنهم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فهم أشد خشيةً لله من غيرهم.

وينبغي أن نعلم أنَّ هناك تلازمًا بين قوة التوحيد وضعفه وبين قوة انشرح الصدر وضعفه؛ لأن الإيمان يثمرُ العمل وتعظيمَ الرب سبحانه وتعالى، ومحبته وتعظيم أوامره، وهذه الأمور تُنتج إفراد الله تعالى بالعبادة وعدم الالتفات إلى أحد سواه وإفرادَه في أسمائه وصفاته وإفرادَه في ربوبيته، وذلك هو الإيمان.

ثم ذكر ابن القيم رحمه الله دليلين احتجَّ بهما على أنَّ أعظم أسباب شرح الصدر: التوحيد، وأنه على حسب كماله وقوته وزيادته يكون انشراح صدر صاحبه:

الدليل الأول: قول الله تعالى: (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ).

والمعنى: أفيستوي من شرح الله صدره للإسلام، فاتَّسع لتلقي أحكام الله والعملِ بها، منشرحًا قرير العين، على بصيرة من أمره، وهو المراد بقوله: (فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ) قد نوَّر الله قلبه، يعبد الله كأنه يرى الله من شدة المراقبة، ويُرزق الأنس بالله سبحانه وتعالى، فإذا اعترضته أعراض بشرية لابدَّ منها أحس بالوحشة وفرَّ إلى الله ليخلِّصه من شرِّ نفسه وهواه، فلا يستوي من شرح الله صدره للإسلام والإيمان، ومن لم يكن كذلك، فأهلُ الإيمان في النور وانشراح الصدور، وأهلُ الضلال في الظلمة وضيق الصدور.

الدليل الثاني: قول الله تعالى: (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيقاً حَرَجاً كَأَنَمَا يَصَّعَّد فى السَّمَاءِ) [الأنعام: ١٢٥].

والمعنى: من يشأ الله أن يوفقه لقَبول الحق، فإنه يمنَّ عليه بالهدايتين هداية الإرشاد والدلالة والبيان، وهداية التوفيق والإلهام فيشرح صدره للتوحيد والإيمان، فيحبُّ الإسلام، ويفرح به، ويستقيم عليه وينقاد له؛ لأنَّ حقيقة الإسلام: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك، فإذا رأى العبد من نفسه هذه المعاني فهو ممن شرح الله صدره للإسلام وهداه، وهذه هداية الإرشاد والدَّلالة والبيان.

وأما هداية التوفيق والإلهام فمعناها: أنْ يوفقه الله تعالى للعمل الصالح والإخلاص فيه ومتابعة رسوله عليه الصلاة والسلام، إذ لا قَبول للأعمال إلا بالأمرين معًا، إخلاص العمل لله تعالى بحيث لا يشوبه شيء من الرياء، وحب الشهرة والظهور؛ ولكن يريد وجه الله وحده ويكون ذلك العمل وفق ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيوفقه إلى ذلك.

ومن يشأ أن يضله يجعل صدره في حال شديدة من الانقباض عن قَبول الهدى، كحال مَن يصعد في طبقات الجو العليا، فيصاب بضيق شديد في التنفس، وكما يجعل الله صدور الكافرين شديدة الضيق والانقباض، كذلك يجعل العذاب على الذين لا يؤمنون به.

فأهل الهدى والإيمان لهم شرح الصدر واتساعه وانفساحه، وأهل

الضلال لهم ضيق الصدر والحرج.

فعلى العبد أن يحرص على فعل الأسباب التي تثبته على الاستقامة على التوحيد، ومن ذلك: الإكثار من سؤال الله تعالى الهداية والثبات على التوحيد، مع دراسة علم المعتقد الصحيح على أهله، ومجانبة أهل البدع بنوعيها المكفِّرةِ والمفسِّقةِ، فإن مخالطتهم تضعف توحيد العبد وقد توقع المرء في نواقض الإسلام أو نواقصه.

ثم قال المؤلف رحمه الله: (فالهدى والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر).

الهدى ضد الضلال، والتوحيد ضد الشرك ، وهما من أعظم أسباب شرح الصدر، والشركُ بنوعيه الأكبر والأصغر والضلالُ من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه، فمن أراد انشراح الصدر فعليه أن يعتني بإصلاح عقيدته، وأن يحذر من ما ينقضها أو ينقصها.

وعليه أن يسعى إلى تحقيق توحيده ليكمل انشراح صدره.

وتحقيقُ التوحيد قدرٌ زائد على ماهية التوحيد، ومرتبتة عظيمة القدر رفيعة المنزلة، وهو عزيز في الأمَّة لا يوجد إلا في أهل الإيمان الخلَّص الذين أخلصهم الله واصطفاهم مِنْ خلقه، وهم في صدر الأمة كثيرون وفي آخرها هم الغرباء وقد قلُّوا، وهم الأعظمون قدرًا عند الله.

وتحقيق التوحيد هو: " تخليصه وتصفيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي".

فالشرك الأكبر ينافي التوحيد بالكلية ومثله البدع المكفِّرة تنافي

التوحيد بالكلية، والشركُ الأصغر ينافي كماله الواجب، ومثله البدعُ المفسِّقة، والمعاصي تقدح فيه وتنقص ثوابه، فلا يكون العبد محققًا للتوحيد حتى يسلم من الشرك بنوعيه، ويسلم من البدع والمعاصي.

وبهذا يكون تحقيق التوحيد على درجتين:

الأولى: الدرجة الواجبة.

وتكون بتحقيق ركنَيْ كلمة التوحيد: النفي والإثبات، وتحقيق شروطها، والبعد عن كلِّ ما يقدح في كلمة التوحيد، من النواقض والنواقص.

الثانية: الدرجة المستحبة.

وهي التي يتفاضل فيها الناس من المحققين للتوحيد أعظم تفاضل، وهي تحقيق المقربين، الذين تركوا ما لا بأس به حذرًا مما به بأس، فأضافوا إلى ما تقدَّم في الدرجة الأولى: فعل المستحبات وترك المكروهات وبعض المباحات وهذا مقام السابقين المقربين.

وحقيقة هذه الدرجة: انجذاب الروح إلى الله، فلا يكون في قلبه شيء لغيره.

وخلاصة ما مضى: أنه إذا تَمّ للمرء هذا التوحيد وحصل له الهدى باتِّباع هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه بذلك يحصل له انشراح صدره أعظم انشراح.

ثم قال المؤلف رحمه الله: (والشرك والضلال من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه).

الشرك من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه، فمن مضار الشرك:

القلق والاضطراب والنَّكد والكمد والحزن اللَّازم، وعدم استقرار النَّفس وعدم ثبات القلب، وحصول الخوف والهلع لأحقر الأمور، وحرمان النّفس من الطُّمأنينة، فالمشرك في حرج وضيق بسبب تعلقه بغير الله فتراه يدعو هذا، ثم يدعو هذا، فلا يستقر له قرار، ولا يطمئن قلبه في موضع، والموحد مخلص لربه، قد خلصه الله من الشركة لغيره، فهو في أتم راحة وأكمل طمأنينة.

وقد ضرب مثلا للشرك والتوحيد يدل على أنَّ الموحِّد في طمأنينة وسكينه بسبب إفراده العبادة لله تعالى، وأنَّ المشرك في بعد عن الراحة والطمأنينة فقال سبحانه: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا رَجُلا) أي: عبدًا (فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ) فهم كثيرون، وليسوا متفقين على أمر من الأمور وحالة من الحالات حتى تمكن راحته، بل هم متشاكسون متنازعون فيه، كل له مطلب يريد تنفيذه ويريد الآخر غيره، فما تظن حال هذا الرجل مع هؤلاء الشركاء المتشاكسين؟ (وَرَجُلا سَلَمًا لِرَجُلٍ) أي: خالصًا له، قد عرف مقصود سيده، وحصلت له الراحة التامة (هَلْ يَسْتَوِيَانِ) أي: هذان الرجلان (مَثَلا)؟ لا يستويان، فكذلك المشرك، فيه شركاء متشاكسون، بسبب تعلقه بغير الله فتراه يدعو هذا، ثم يدعو هذا، فتراه لا يستقر له قرار، ولا يطمئن قلبه في موضع، والموحد مخلص لربه، قد خلَّصه الله من الشركة لغيره، فهو في أتم راحة وأكمل طمأنينة، ف (هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلا الْحَمْدُ لِلَّهِ) على

تبيين الحق من الباطل، وإرشاد الجهال، (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ).

والضلال وعلى رأسه البدع بعد الشرك بالله من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه، فأهل البدع في وحشة وقلق بسبب وقوعهم في المحدثات.

قال أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ الرَّازِيُّ، قَالَ فِي كِتَابِهِ أَقْسَامِ اللَّذَّاتِ:

نِهَايَةُ إِقْدَامِ الْعُقُولِ عِقَالُ ... وَغَايَةُ سَعْيِ الْعَالَمِينَ ضَلَالُ

وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا ... وَحَاصِلُ دُنْيَانَا أَذًى وَوَبَالُ

وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا ... سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فيه قيل وقالوا

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في تعليقه على قول الرازي:

(وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا): **قال:**

(إلى هذا الحد: روحُه مستوحِشةٌ مِنْ جسده، لا تودُّ أنْ تقرَّ فيه، كأنما يتمنونَ الموتَ الآن ومفارقةَ الروحِ الجسدَ الذي هي في وحشة منه؛ لان الإنسان – نسأل الله العافية والسلامة والثبات – إذا لم يكن له عقيدة ضاع، اللهم إلا أنْ يكون قلبُهُ ميتًا؛ لان الذي قلبه ميت يكون حيوانيًا لا يهتم بشيء أبدًا، لكن الإنسان الذي عنده شيء من الحياة في القلب إذا لم يكن له عقيدة فإنه يضيع ويهلك، ويكون في قلق دائم لا نهاية له، فتكون روحه في وحشة من جسمه).

فيجب على العبد أن يهتم بالتوحيد أيما اهتمامٍ؛ فهو سبب

لانشراح صدره ونجاته وفلاحه في الدنيا والآخرة، مع ما للتوحيد من فضائل عظيمة، فهو:

- من أعظم أسباب تفريج الكربات.
- وبه يدفع العذابُ عن الناس.
- وهو مانعٌ من الخلود في النار، إذا كان في القلب من التوحيد أدنى مثقال حبة من خردل.
- وإذا كمُل التوحيد في القلب مَنَعَ من دخول النار بالكلية.
- وبه يحصل لصاحبه الهدى الكامل، والأمن في الدنيا والآخرة.
- وهو السبيل الوحيد لنيل رضا الله ﷻ وثوابه.
- وهو سبب للشفاعة، فأسعد الناس بشفاعة نبينا ﷺ من قال: «لا إله إلا الله» خالصاً من قلبه.
- وجميعُ العبادات الظاهرة والباطنة متوقِّفَةٌ في قبولها وفي كمالها، وفي ترتب الثواب عليها على التوحيد، فكلَّما قوِيَ التوحيدُ والإخلاصُ لله، كمُلت هذه الأمور وتمَّت.
- والتوحيد هو الذي يُسهِّلُ على العبد فعل الخيرات، وترك المنكرات، وإذا استقر التوحيد في القلب، وأخلص المرءُ لله ﷻ كان عبداً لله، ممتثلًا أمره، ومُجْتَنِبًا نهيه.
- والتوحيد إذا حققه العبدُ أحبه الله تعالى، وزيّن الإيمانَ في قلبه، وكرَّه إليه الكفر والفسوق والعصيان، وجعله من الراشدين.

- والتوحيد يخفِّفُ على العبد المكاره، ويهوِّنُ عليه الآلام والمصائب.
- وهو المحرِّرُ من رقِّ التعلُّق بالمخلوقين، فيجعل العبدَ لا يتوجه في خوفه، وفي رجائه، وفي حبه، وفي بغضه، إلا وَفْق ما أراده الله ﷻ منه.
- والتوحيد تكفّل الله ﷻ لأهله بالفتح والنصر، والعز والتسديد والتوفيق، وتيسير الأمور.
- وأهل التوحيد يدافع الله ﷻ عنهم، يدفع عنهم شرور الدنيا والآخرة، ويَمُنُّ عليهم بالحياة الطيبة، والطمأنينة بذِكره.

قال المؤلف رحمه الله:

ومنها: النور الذي يقذفه الله في قلب العبد، وهو نور الإيمان، فإنه يشرح الصدر ويوسعه ويفرح القلب، فإذا فقد هذا النور من قلب العبد ضاق وحرج، وصار في أضيق سجن وأصعبه.

وقد روى الترمذي في " جامعه " عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح، قالوا: وما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله»

فيصيب العبد من انشراح صدره بحسب نصيبه من هذا النور، وكذلك النور الحسي، والظلمة الحسية، هذه تشرح الصدر، وهذه تضيقه.

الشرح:

تقدَّم أنَّ أعظم أسباب انشراح الصدر: الاستسلام لله تعالى بالتوحيد، ولا يحصل الاستسلام التامُّ لله بالتوحيد إلا بالعلم الشرعي ويكون ذلك بمعرفة حقيقة التوحيد وتفاصيله، وحقيقة ما يضاده وهو الشرك بالله، ومعرفة نواقض التوحيد ونواقصه، ثم الانقياد لله تعالى بفعل الطاعات، وترك المنهيات، فإذا حصل هذا للعبد يكون ممن رزقه الله نور الإيمان.

فنورُ الإيمان المراد به: نورُ العلم والبصيرة فهذا هو النور الذي يقذفه الله في قلب العبد فتحصل بسببه قوة الإيمان، ويظهر أثر هذا النور

على جوارح العبد فمدخله نور ومخرجه نور وعلمه نور ومشيته مع الناس نور وكلامه نور ومصيره إلى نور، والنور يتوقد في قلبه ويجري على لسانه ويظهر على وجهه.

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: (فالقلبُ الذي دخله نورُ الإيمان، وانشرح به وانفسح، يسكن للحقِّ، ويطمئن به ويقبله، وينفر عن الباطل ويكرهه ولا يقبله).

ونور الإيمان يحتاج إلى مادة من العلم النافع والعمل الصالح يقوم بها ويدوم بدوامها فإذا انقطعت مادة الإيمان طفيء كما تَطْفَأُ النار بفراغ مادتها.

فالسائر في الطريق في ظلمة قد ضلَّ عن الطريق فإذا استنار له اهتدى إلى الطريق، فالنور وسيلة الاهتداء ولكن إنما يهتدي به من لا يكون له حائل دون الاهتداء وإلا لم تنفعه وسيلة الاهتداء، فالعمل بالعلم والاهتداء بالشرع هو ثمرة النور الذي يشرح صدر العبد، ويُوسِّعه، فيصبر على البلاء، ويشكر عند النعماء، فتحصل له طمأنينة القلب وانشراح الصدر.

ومما يدل على أنَّ نور الإيمان يشرح الصدر ويوسعه ويفرح القلب:

ما جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح، قالوا: وما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله» وهذا الحديث لم يروه الترمذي كما ذكره ابن القيم، وقد

أخرجه الطبري من حديث ابن مسعود، وذكره السيوطي في الدر المنثور وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والحاكم، والبيهقي في الشعب من طرق.

قال الحافظ ابن كثير بعد أن ذَكَرَهُ عن عبد الرزاق وابن أبي حاتم وابن جرير: (فهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة يشدُّ بعضها بعضًا).

وهذا الحديث فيه بيان أنه إِذَا دَخَلَ نورُ الإيمان الْقَلْبَ انْشَرَحَ الصَّدْرُ، وَانْفَتَحَ، ولذلك ثلاث علامات يُعْرَفُ بِهَا، هي:

أولًا: الإِنَابَةُ والإكثار من التوبة والرجوعُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وهي الآخرة، وهذا يكون بالعناية بأوامر الله تعالى ونواهيه، والإقبال على الآخرة، والإعداد لها بالعمل الصالح.

ثانيًا: التَّجَافِي والتباعد عَنْ دَارِ الْغُرُورِ وهي الدنيا وما فيها، وعدم الاغترار بها، واحتقارُها، بحيث يأخذ حاجته منها، ولا تشغله عن طاعة الله تعالى.

ثالثًا: الاسْتِعْدَادُ لِلِقَاءِ الْمَوْتِ قَبْلَ الْمَوْتِ، ويكون ذلك بمحاسبة النفس والتوبة والاجتهاد بصالح الأعمال وانكسار القلب والسير إلى الله تعالى بين الخوف والرجاء، فإذا لازم العبد هذا المسلك كان مستعدًا للموت بحق.

قال ابن القيم رحمه الله: (فإذا فُقِدَ هذا النور من قلب العبد، ضاقَ وحَرِجَ، وصار في أضيق سجنٍ وأصعبه).

الإكثار من المعاصي والاستمرار فيها سبب لظلمة القلب فلا تزال الذنوب تطفئ ما في القلب من نور الإيمان على ضعفه حتى تصير طبعًا ورينًا، فيحصل للعبد الضيق والحرج، وإنْ كان فيما يبدو للناس في نعيم وراحة؛ لكن فيما بينه وبين الله إذا فَقَد نور الإيمان بتركه العلم والعمل الصالح ضاق صدره.

فلا يغرَّنكم حالُ من وسَّع الله عليه في رزقه ممن كان بعيدًا عن ربه تعالى من كفرةٍ وغيرهم من فسَّاق المسلمين، فليس هذا دليلًا على انشرح صدورهم، بل هو متاع قليل يحصل لهم في الدنيا، ثم مآلهم إلى جهنم وبئس المهاد، فقد قال الله تعالى في هؤلاء: [لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ – مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ].

وهذه الآية المقصود منها التسلية عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا، وتنعمهم فيها، وتقلبهم في البلاد بأنواع التجارات والمكاسب واللذات، وأنواع العزِّ، والغلبة في بعض الأوقات، فإن هذا كله [متاع قليل] ليس له ثبوت ولا بقاء، بل يتمتعون به قليلًا ويعذبون عليه طويلًا.

قال ابن القيم رحمه الله: (فنصيبُ العبد من انشراح صدره بحسب نصيبه من هذا النور) وقد تقدم ذكر تفاوت الناس في إيمانهم قوة وضعفًا، وذلك حسب قوة هذا النور وضعفه، وهذا أمر معنوي يدركه الإنسان من نفسه ويدركه العبد بالعلامات التي تقدَّم ذكرها.

فعلى العبد أن يجتهد في فعل ما يزيد في إيمانه ليزداد نصيبه من

هذا النور فيزداد صدره انشراحًا.

فقد روى الحاكم في مستدركه، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ الْخَلِقُ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ».

فهذا الحديث فيه إشارة إلى خفوت نور الإيمان وضعفه وطروء أسباب الضعف عليه، وأنَّ علاج ذلك بالدعاء، وبفعل أسباب زيادة الإيمان.

قال الإمام محمد بن أسلمَ الطوسي رحمه الله: (فبدءُ الإيمان من قِبَلِ اللهِ فضلٌ منه ورحمةٌ وَمَنٌّ يَمُنُّ به على من يشاء من عباده فيقذفُ في قلبه نورًا يُنَوِر به قلبَه ويشرحُ به صدرَه ويزيدُ في قلبه الإيمانَ ويحببهُ إليه.

فإذا نوَّرَ قلبَه وزيَّن فيه الإيمانَ وحبَّبَهُ إليه آمنَ قلبُهُ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر كله خيره وشره، وآمنَ بالبعث والحساب والجنة والنار حتى كأنه ينظرُ إلى ذلك، وذلك من النور الذي قذفَه اللهُ في قلبه.

فإذا آمن قلبُه نطقَ لسانه مصدِقًا لما آمن به القلبُ وأقرَ بذلك وشهد أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله وأنَ هذه الأشياء التي آمن بها القلبُ فهي حقٌ فإذا آمن القلبُ وشهد اللسانُ عملتِ الجوارحُ فأطاعت أمرَ الله وعملتْ بعملِ الإيمان وأدَّت حقَّ الله عليها في فرائضه وانتهت عن محارم الله إيمانًا وتصديقًا بما في القلب ونطَقَ

به اللسانُ، فإذا فعل ذلك كان مؤمنًا) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء.

ثم قال ابن القيم رحمه الله: (وكذلك النور الحسي والظلمة الحسية هذه تشرح الصدر وهذه تضيقه)، وهذا أمرٌ محسوس، فإذا كنت في مكان مضيء انشرحت نفسك للقراءة، وإذا كنت في غرفة مظلمة يضيق صدرك فلا تستطيع القراءة، فكذلك النور المعنوي بالنسبة للإنسان، فإنَّ العبد إذا رُزق نور الإيمان انشرح صدرُه وفرح ورُزق السُّرور بالله سبحانه وتعالى وبسعادته وإذا حُرم هذا النور ضاق صدره.

قال المؤلف رحمه الله:

ومنها: العلم، فإنه يشرح الصدر، ويوسعه حتى يكون أوسع من الدنيا، والجهل يورثه الضيق والحصر والحبس، فكلما اتسع علم العبد انشرح صدره واتسع، وليس هذا لكل علم، بل للعلم الموروث عن الرسول ﷺ، وهو العلم النافع، فأهله أشرح الناس صدرًا، وأوسعهم قلوبًا، وأحسنهم أخلاقًا، وأطيبهم عيشًا.

الشرح:

قال ابن القيم رحمه الله: (**ومنها: العلم، فإنه يشرح الصدر، ويوسِّعُهُ حتى يكونَ أوسع من الدنيا)، من أسباب انشراح الصدر:** العلم الموروث عن النبي ﷺ، وهو علم القرآن والسنة، فـ: (ال) في العلم للعهد.

قال ابن القيم رحمه الله في مفتاح دار السعادة: (فمحبة العلم من علامات السعادة وبغض العلم من علامات الشقاوة، وهذا كله إنما هو في علم الرسل الذي جاووا به، ووَرَّثوه للأمة، لا في كلِّ ما يسمَّى علمًا).

فالعلم الشرعي يُعرِّفُ العبدَ بربه، فصاحبه يعبد الله على بصيرة، وإذا عبده على بصيرة انشرح صدره، ولم يتخبط في سيره إلى الله، فلا يقع في مخالفات شرعية، في عباداته وفي سلوكه وفي تعاملاته مع الخلق، لأنَ وقوعه في هذه المخالفات سبب من أسباب ضيق صدره، فإذا عبد الله على بصيرة انشرح صدره لما يقوم به لعلمه أنه لم يتجاوز

الشرع في جميع أحواله، والعلم الشرعي يشرح الصدر ويوسِّع مدارك النظر ويفتح الآفاق أمام النفس فتخرج من همها وغمها وحزنها، فالعلم الشرعي يشرح الصدر ويوسِّعه حتى يكون أَوسعَ من الدنيا، ويُورِّث القلبَ الهداية والبصيرة والنُّور والسَّعادة الأبدية بتوفيق الله.

قال ابن القيم رحمه الله: (والجهل يورثه الضيق والحصر والحبس).

فالجاهل الذي لا يعرف حقوق الخالق، ولا أحكام الشريعة، قد يقعُ في الشرك والبدع والمخالفات التعبدية وهو لا يشعر، فيورثه ذلك ضيق الصدر وحصره وحبسه.

والجاهل الذي لا يعلم حقوق المخلوق، قد يقع بسبب جهله في الخصومات مع الناس فيتولد من صنيعه ذلك ما يجلب له الهم والغم.

والجهل يوقع في المعاصي، والمعاصي من شؤمها أنها تورِّثُ لصاحبها الضيق والحصر والحبس، كما قال الحسن البصري رحمه الله في العصاة: "وإن طقطقت بهم البغال [يعني صوتت حوافرها على الأرض الصلبة]، وهملجت بهم البراذين [يعني مشت مشيةً سهلة في سرعة – والبراذين: تُطلق على غير العربي من الخيل والبغال وهي مختصَّة بحمل الأحمال الثقيلة] إنَّ ذُل المعصية لفي رقابهم، أبى الله إلا أن يُذل مَن عصاه".

فالعاصي؛ يناله من الذلة والكبت بحسب معصيته، وكل هذا الذل الذي يناله ناشئٌ عن أسباب منها الجهل بالشرع.

وتأملوا معنى هاتين الآيتين اللتين تبيِّنان عدم استواء أهل العلم

وأهل الجهل، لتعلموا شرف العلم، وأنه منَّةٌ عظيمة لها أثر في انشراح الصدر، ولتعلموا أثرَ الجهل وأنه نقمة على صاحبه، وله أثر في ضيق الصدر وانحرجه:

الآية الأولى: قول الله تعالى: (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

قال السعدي رحمه الله: (**يقول الله تعالى:** (أَوَمَنْ كَانَ) مِنْ قَبْلِ هداية الله له (مَيْتًا) في ظلمات الكفر، والجهل، والمعاصي، (فَأَحْيَيْنَاهُ) بنور العلم والإيمان والطاعة، فصار يمشي بين الناس في النور، متبصرًا في أموره، مهتديًا لسبيله، عارفًا للخير مؤثِرًا له، مجتهدًا في تنفيذه في نفسه،[وصار] غيرُهُ عارفًا بالشر مبغضًا له، مجتهدًا في تركه وإزالتِه عن نفسه وعن غيره، أفيستوي هذا بمن هو في الظلمات، ظلمات الجهل والغي، والكفر والمعاصي. (لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا) قد التبستْ عليه الطرق، وأظلمت عليه المسالك، فحضره الهم والغم والحزن والشقاء، فنبَه تعالى العقول بما تدركه وتعرفه، أنه لا يستوي هذا ولا هذا كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلمة، والأحياء والأموات).

الآية الثانية: قول الله تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ).

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ) ربهم ويعلمون دينه الشرعي ودينه الجزائي، وما له في ذلك من الأسرار والحكم (وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)

شيئًا من ذلك؟ الجوابُ سُكتَ عنه للعلم به، فلا يستوي هؤلاء ولا هؤلاء، كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلام، والماء والنار.

(إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ) إذا ذكِّروا (أُولُو الأَلْبَابِ) أي: أهل العقول الزكية الذكية، فهم الذين يؤثرون الأعلى على الأدنى، فيؤثرون العلم على الجهل، وطاعةَ الله على مخالفته؛ لأنَّ لهم عقولًا ترشدهم للنظر في العواقب، بخلاف من لا لبَّ له ولا عقل، فإنه يتخذ إلهه هواه.

قال ابن القيم رحمه الله: (فكلما اتسع علم العبد انشرح صدره واتسع).

العلم: معرفة الهدى بدليله، وهو على قسمين:

الأول: ما كان تعلمه فرض عين، وهو كل علم يحتاج إليه المكلف في أمر دينه، كأصول الإيمان وشرائع الإسلام، وما يجب اجتنابه من المحرمات، وما يحتاج إليه في المعاملات، ونحو ذلك مما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب عليه العلم به.

قال الإمام أحمد رحمه الله: (يجب أن يطلب من العلم ما يقوم به دينه، قيل له: مثل أي شيء؟ قال: الذي لا يسعه جهله: صلاته وصيامه، ونحو ذلك).

ومما يدل على أنَّ هذا النوع من العلم واجب:

حديث أنس رضي الله عنه أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: "طلب العلم فريضة على كل مسلم" رواه ابن ماجه وغيره.

فالواجب على المسلم أن يتعلم ما يجب عليه من أمر دينه مما يتعلق

بعقيدته وعبادته ومعاملته، وعليه أن يسأل أهل العلم، ويحذر من الإعراض عما جاء عن الله تعالى وعن رسوله صلى الله عليه وسلم، وعليه أنْ يقبل النصح والتوجيه، وينقاد للحق، فهذه صفة المؤمن الحق.

الثاني: العلم الكفائي وهو العلم الذي تعلمه فرض كفاية، كتفاريع المسائل الفقهية والاطلاع على أقوال العلماء ومعرفة الخلاف ومناقشة الأدلة فهذا ليس بواجب على كل مسلم، فإذا وجد من يقوم به من أهل العلم صار في حق الباقين سنة.

فكلما اتسع علم العبد واعتنى بدراسة العلم الكفائي بعد العيني وبضبطه وأخذه على أهله، فإنه ينشرح صدره ويتَّسع.

فعلى من أراد زيادة الانشراح في صدره أنْ يكون صاحب نهمة في طلب العلم، فالعلم جنة لا يعرف حلاوتها ولا لذتها ولا بركتها ولا خيرها إلا من وفقه الله عزَّ وجل، فأتم عليه النعمة وكمَّلها، ولذلك **قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عندما حُبس بسبب وشاية أهل البدع به**: (ما يصنع أعدائي بي؛ أنا جنتي في صدري، إنْ رحت فهي معي لا تفارقني)، وهذه الجنة هي لذة الإيمان واليقين المأخوذة من العلم الشرعي، وقد كان رحمه الله موسوعة فيه حتى عدَّة العلماء في جملة أهل الاجتهاد المطلق.

قال ابن القيم في كتابه الوابل الصيِّب وهو يذكر حال شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية لما حُبس في قلعة بغداد: (ولما دخل إلى

القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: [فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ]، وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيبَ عيشًا منه قط مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدَّها ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا وأشرحهم صدرًا وأقواهم قلبًا وأسرِّهم نفسًا تلوح نضرة النعيم على وجهه وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كلَّه وينقلب انشراحًا وقوة ويقينًا وطمأنينة فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه وفتح لهم أبوابها في دار العمل فآتاهم من رَوْحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها).

قال ابن القيم رحمه الله: (وليس هذا لكل علم، بل للعلم الموروث عن الرسول ﷺ، وهو العلم النافع).

العلم الذي يشرح الصدر هو العلم النافع، وهو: علم الكتاب والسنة.

قال ابن القيم في نونيته:

العلم قال الله قال رسوله...قال الصحابة هم أولو العرفان

وكلامُ الصحابة رضي الله تعالى عنهم مبني على الكتاب والسنة، إذ لا يمكن أن يأتوا بشيء من عنديَّاتهم، فمرد التلقي إلى الكتاب والسنة.

وقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسأله الازدياد من

العلم النافع فإنَّ العلم خير وكثرة الخير مطلوبة وهي من الله والطريق إليها الاجتهادُ في تحصيل العلم الشرعي وسؤال الله والاستعانة به والافتقار إليه في كل وقت.

قال الله تعالى: (وقل رب زدني علمًا).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: (وقوله عزَّ وجلَّ: [وقل رب زدني علمًا] واضح الدلالة في فضل العلم؛ لأنَّ الله تعالى لم يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب الازدياد من شيء إلا من العلم).

وجاء في حديث جَابِرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "سَلُوا اللَّهَ عِلْمًا نَافِعًا، وَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ" رواه ابن ماجه وحسنه الألباني.

سلوا الله علما نَافِعًا: أَي شَرْعِيًّا مَعْمُولا بِهِ، فهذا هو الذي يشرح الصدر، وتعوذوا بِاللَّه من علم لَا ينفع، كالسحر وَغَيره من الْعُلُوم الْمضرَّة أَو الْعلم الذي لا يترتَّب عليه عمل، أو العلم الشرعي الذي لا يعمل به صاحبه، فهذا هو الذي يفسد القلب ويضيّقه.

قال ابن القيم رحمه الله: (فَأَهْلُهُ أَشْرَحُ النَّاسِ صَدْرًا، وَأَوْسَعُهُمْ قُلُوبًا، وَأَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقًا، وَأَطْيَبُهُمْ عَيْشًا)؛ أهل العلم والعمل: داخلون في عموم قول الله تعالى: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً) وذلك بطمأنينة قلبه وسكون نفسه وعدم التفاته لما يشوش عليه قلبه ويرزقه الله رزقًا حلالًا طيبًا من حيث لا يحتسب، (وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ)، في الآخرة (أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) من أصناف اللذات مما لا عين رأت ولا أذن سمعت

ولا خطر على قلب بشر فيؤتيه الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة.

والحياة الطيِبة يدخل فيها ما ذكره ابن القيم هنا، فأهلُ العلم أشرح الناس صدرًا، وأوسعهم قلوبًا، فهم أهل ارتياح وطمأنينته وسعادة وحياة كريمة، فالعلمُ قوَّى جانب الإيمان بالقدر عندهم، فهم أوسع قلوبًا، ولو كانوا في حال بلاء من ضيق رزق وأذى خلق ومرض وغير ذلك، فلم تضق نفوسهم بما يصيبها من مكاره بل آمنت بالقدر خيره وشرِّه فأثمر الإيمان بالقدر لهم راحة النفس وطمأنينة القلب، لأنهم يعلمون أنَّ ما أصابهم بقضاء الله تعالى، وأن المكروه كائن لا محالة، فارتاحت النفس، واطمأنت قلوبهم، ورضوا بقضاء الرب، فلا أحد أطيب عيشًا وأريح نفسًا وأقوى طمأنينة ممن آمن بالقدر.

وأهل العلم أحسن الناس أخلاقًا، ويظهر حسن خلقهم في حرصهم على الاتِّباع والبعد عن الابتداع، وفي تعاملهم مع الخلق من جهة تواضعهم ورحمتهم ودعوتهم إلى الله تعالى ونفعهم بجميع وجوه النفع.

قال ابن القيم رحمه الله في كتابه الفوائد: (من عَلَامَات السَّعَادَة والفلاح أَن العَبْد كلما زيد فِي علمه زيد فِي تواضعه وَرَحمته).

ويظهر حسن خلقهم في تعاملهم مع الأحياء غير العاقلة، كالبهائم والطيور وغيرهما، لأنَّ العلم دلَّهم على ذلك فعملوا به، وظهر على سلوكهم وأخلاقهم.

وأهل العلم أطيب الناس عيشًا، والعيشُ معناهُ: الحياةُ، والعِيشةُ: حالةُ الإنسان في حياته

فأهل العلم يعيشون حياتهم في طيب وراحة وخير وأمن وسلام، وفي نعيم قلب ولذَّة روح، وفرح وابتهاج، ولا يضرهم ما هم فيه فيه من بلاء.

قال المؤلف رحمه الله:

ومنها: الإنابة إلى الله سبحانه وتعالى، ومحبته بكل القلب والإقبال عليه والتنعم بعبادته، فلا شيء أشرح لصدر العبد من ذلك، حتى إنه ليقول أحيانًا: إنْ كنت في الجنة في مثل هذه الحالة فإني إذا في عيش طيب.

وللمحبة تأثير عجيب في انشراح الصدر وطيب النفس ونعيم القلب، لا يعرفه إلا من له حسٌّ به، وكلما كانت المحبة أقوى وأشد كان الصدر أفسح وأشرح، ولا يضيق إلا عند رؤية البطَّالين الفارغين من هذا الشأن، فرؤيتهم قذى عينه، ومخالطتهم حمى روحه.

الشرح:

من أسباب انشراح الصدر: الإنابة إلى الله سبحانه وتعالى، ومحبته بكل القلب والإقبال عليه والتنعم بعبادته.

والإنابةُ إلى الله سبحانه وتعالى عرَّفَها ابنُ القيِّم رحمه الله في كتابه مدارج السالكين بأنها: الإسراع إلى مرضاة الله مع الرجوع إليه في كلِّ وقت، وإخلاص العمل له.

وذكر أيضًا في مدارج السالكين أنَّ إنابة أولياء الله تعالى هي: إنابة لإلهيَّته إنابةُ عبوديَّةٍ ومحبَّة، وهي تتضمَّن أربعة أمور:

- محبَّته.
- والخضوع له.

- والإقبال عليه.
- والإعراض عمَّا سواه.

فلا يَستحقُّ اسمَ «المنيب» إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع، وتفسير السَّلف لهذه اللفظة يدور على ذلك.

والإنابة منزلة تأتي بعد منزلة التوبة.

قال ابن القيم في مدارج السالكين: (فمن نزل في منزل التوبة، وقام في مقامها نزل في جميع منازل الإسلام، فإذا استقرَّت قدمه في منزل التّوبة نزل بعده في منزل الإنابة).

ولا ينزل منزل الإنابة إلا أهلُ التبصُّر والتذكُّر في آيات الله تعالى، كما قال الله سبحانه: (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) [ق: ٦- ٧].

وقد أخبر الله تعالى أنَّ ثوابه وجنته لأهل الخشية والإنابة، فقال: (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ* هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ* مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ* ادْخُلُوها بِسَلامٍ) [ق: ٣١- ٣٤]، وأخبر سبحانه أنَّ البشرى منه، إنَّما هي لأهل الإنابة فقال: [وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَأَنابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرى) [الزمر: ١٧].

ومن أسباب انشراح الصدر: محبة الله تعالى بكلِّ القلب، فلا تقبل إلا عليه، ولا تلتفت بقلبك إلا إليه، فمحبة التعبُّدِ لا يجوز صرفها

إلا الله تعالى.

ومعنى محبة الله تعالى: ميل القلب إلى الله، وتعلُّقُه به، ثم إيثار مرضاته، والجدُّ في تحصيلها بكل وسيلة، ومحبة الله الواجبة هي محبة العبودية التي معها الذُلُّ والخضوع.

والذي يُحرِّك القلوبَ إلى محبة العبد لربه تعالى، جملة من الأمور إذا **فعلها العبد، وأتى بها، تحرّك قلبُه إلى محبة الله تعالى، ومحبّة ما يحبه ويرضاه، ومنها:**

معرفة الله تعالى؛ فالمحبَّة تتبع العلم، فمن عرف ربَّه أحبَّه، ومعرفة الله تعالى تحصل بالعلم، وهذا مما يدلُّ على أهمية شأن العلم، ووجوب الحرص عليه، فطلب العلم يُعرِّفك بالله، فإذا عرفته، وعملت بما أمر به، واجتنبت ما نهى عنه، ازددت محبةً لله تعالى.

ومما يحرِّك القلوب إلى الله تعالى: كثرة ذكر الله تعالى للمحبوب؛ لأنَّ كثرة الذكر تعلّق القلوب بالله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢].

ومما يحرِّك القلوب إلى الله تعالى: مطالعة آلائه ونعمائه؛ لأنَّ القلوب قد جُبِلت على حُبِّ من أحسن إليها، فإذا رأيت عظيمَ مِنَّة الله تعالى عليك ازددت محبةً له، قال الله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، فكيف لا تُحبُّ من تفضَّل عليك بهذه النِعم؟ وأوجدك من العدم، وهداك للإسلام، ورزقك الصحَّة

والعافية، وأنواع النِعم؟

فاستحضار مثل هذه الأمور مما يبعث على محبة الله تعالى، وعلى فعل ما يحبّه اللهُ، وعلى ترك ما يكرهه.

ومحبة الله تعالى بكلِّ القلب تقتضي عدَّة أمور:

أولًا: أنْ لا تشرِك أحدًا مع الله تعالى في عبادة المحبة.

فمحبة الله تعالى لا تكفي وحدها في النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه، فإنَّ المشركين وعبَّاد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله، لكنهم يسوُّون بين الله تعالى وبين غيره في المحبة، كما قال الله تعالى عنهم: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ) أي: يُحِبُّونَ الْأَنداد كَمَا يُحِبُّونَ اللَّهَ لِأَنَّهُمْ أَشْرَكُوهَا مَعَ اللَّهِ فَسَوَّوْا بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ أَندادهم فِي الْمَحَبَّةِ.

ثانيًا: أنْ لا تقدِّم محبة غير الله تعالى على محبة الله عزَّ وجلَّ.

ومن صور تقديم محبة الناس على محبة الله ورسوله: المداهنة في دين الله تعالى، وإرضاء المخلوقين، والله تعالى يقول: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٦٢].

والمداهنة تتعلَّق بالدِّين والمقصود بها: التنازل عن الشرع، والسكوت عن أهل البدع، ومجالستهم بحثًا عن الدُّنيا، والمدح والثناء، وغير ذلك من المقاصد الدنيئة.

ومن صور تقديم محبة غير الله تعالى على محبة الله عزَّ وجلَّ: تقديم محبة الأشياخ، ومحبة الأحزاب على الحق، والتعصُّب الفقهي المذهبي، والتحزُّب بجميع أنواعه وصوره يدخل في ذلك؛ لأنَّ من الثمار السيئة

له تقديم محبة الحزب على قول كلِّ أحدٍ، وعقد ألوية الولاء والبراء على الحزب، هذه تكاد أن تكون سمة لجميع الأحزاب، وجميع الفِرق وجميع الطوائف.

فالواجب على العبد أن ينظر في أحوال الناس، وفي مقالاتهم، ثم يزنها بميزان الشريعة، فما وافق الحقَّ عمل به، وما خالفه ردَّه وتركه، ولو حصل هذا من أقرب الناس إليه، ولو حصل من أشياخه، فالواجب تقديم محبة الله ورسوله على محبة كلِّ أحدٍ.

ثالثًا: أنَّ من لوازم المحبة، حُسن الاتباع؛ فالمحبة ليست مجرد دعوى تُدَّعى؛ بل لا بدَّ فيها من إقامة البرهان عليها، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

فشرطُ المحبة موافقة المحبوب، فتحب ما يحب، وتكره ما يكره، وتُبغض ما يُبغض.

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ: (زَعَمَ قَوْمٌ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللَّهَ فَابْتَلَاهُمُ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ).

وقال ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين: (يحببكم الله: إشارة إلى دليل المحبَّة وثمرتها وفائدتها فدليلها وعلامتها اتّباع الرسول صلى الله عليه وسلم وفائدة الاتباع وثمرته محبَّة الله عز وجل فإذا لم تحصل المتابعة فليست المحبَّة بحاصلة).

ومن أسباب انشراح الصدر: التنعُّم بعبادة الله تعالى.

والتنعمُ بعبادة الله تعالى لا يحصل إلا إذا أخلص العبد العمل لله تعالى، فحقيقة الإخلاص: «التّبري عن كلِّ ما دون الله تعالى»،

فالإخلاص:

- يبعد عن الإنسان الوساوس والأوهام..
- ويحرِّر العبد من عبوديَّة غير الله تعالى.
- ويحقِّق الطُمأنينة لقلب الإنسان.
- ويجعله يشعر بالسَّعادة.

فإذا أخلص العبد العبادة لله تعالى وحده حصل له التنعمُ بعبادة الله عزَّ وجلَّ.

ومن صور التنعم بالعبادة: ما يجده أهل الإخلاص والإقبال على تعالى من أنس وسرور وانشراح صدر وسكون قلب عند إقامتهم لصلاتهم، فإنَّ الواحد منهم يدخل في صلاته فيجد فيها أنسه وسروره فلا يخرج منها إلا وقد ازداد إيمانًا وإقبالًا على ربه تعالى.

فالصلاة قرة عيون أهل الإخلاص، فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قال: قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» رواه النسائي وغيره.

فقرة العين وطمأنينة القلب وراحة البدن في الصلاة لله سبحانه وتعالى، ومما يدل على ذلك أيضًا ما جاء في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قام حتى تورَّمت قدماه، فقيل له تفعل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: " أفلا أكون عبدًا شكورا؟ وهذا دليل على أنه كان يستشعر حلاوة الطاعة التي تنسيه تورم القدمين وتجعله يواظب على ذلك، صلوات الله وسلامه عليه.

وهذه اللذة التي يجدها أهل الإقامة للصلاة تثمر ثمرات تكلم عنها ابن القيم رحمه الله في طريق الهجرتين وهو يعدِّد أعمال الأبرار فقال: (فأول ما يستيقظ أحدهم من منامه يسبق إلى قلبه القيام إلى الوضوء والصلاة كما أمره الله فإذا أدى فرض وقته اشتغل بالتلاوة والأذكار إلى حين تطلع الشمس فيركع الضحى ثم ذهب إلى ما أقامه الله فيه من الأسباب فإذا حضر فرض الظهر بادر إلى التطهر والسعي إلى الصف الأول من المسجد فأدي فريضته كما أمر مكملا لها بشرائطها وأركانها وسننها وحقائقها الباطنة من الخشوع والمراقبة والحضور بين يدي الرب فينصرف من الصلاة وقد أثرت في قلبه وبدنه وسائر أحواله آثارا تبدو على صفحاته ولسانه وجوارحه ويجد ثمرتها في قلبه من الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور وقلة التكالب والحرص على الدنيا وعاجلها قد نهته صلاته عن الفحشاء والمنكر وحببت إليه لقاء الله ونفرته من كل قاطع يقطعه عن الله فهو مغموم مهموم كأنه في سجن حتى تحضر الصلاة فإذا حضرت قام إلى نعيمه وسروره وقرة عينه وحياة قلبه فهو لا تطيب له الحياة إلا بالصلاة).

فمن أناب إلى الله سبحانه وتعالى، وأحبَّه بكلِّ القلب وأقبل عليه وتنعَّم بعبادته، اطمأنَّ قلبه من قلق الغفلةِ والإعراضِ إلى سكون الإقبال على الله وحلاوة ذكره وتعلُّقِ الروح بحبه ومعرفته فلا طمأنينة للروح بدون هذا أبدًا، حتى إنَّ من وجدَ هذه الراحة والطمأنينة ليقول أحيانًا: (إنْ كنت في الجنة في مثل هذه الحالة فإني إذًا في

عيش طيب)، وهذا يقوله من جرَّب لذة العبادة، يقول ذلك بسبب ما يجده من راحة قلبه وشوق نفسه إلى الله، ورضاها، وطُمأنينتها، وانفتاحها، وتلذذها بما يجيء إليها من أنوار الحقِّ، ودلائل الحقِّ، والأُنس بطاعته، وترك معصيته.

أما من شغل نفسه بتتبع حظوظ دنياه، ونسي أمر آخرته، فإنه لن يحصِّل في الدنيا إلا عذاب تعلق القلب بغير الله تعالى.

قال ابن القيم رحمه الله: (وللمحبة تأثير عجيب في انشراح الصدر وطيب النفس ونعيم القلب، لا يعرفه إلا من له حسٌّ به، وكلما كانت المحبة أقوى وأشد كان الصدر أفسح وأشرح، ولا يضيق إلا عند رؤية البطَّالين الفارغين من هذا الشأن، فرؤيتهم قذى عينه، ومخالطتهم حمى روحه).

محبة الله تعالى قال عنها ابن القيم رحمه الله في الجواب الكافي: (هي حياة القلوب وغذاء الأرواح، وليس للقلب لذة، ولا نعيم، ولا فلاح، ولا حياة إلا بها، وإذا فقدها القلب كان ألمه أعظمَ من ألم العين إذا فقدت نورها، والأذن إذا فقدت سمعها، والأنف إذا فقد شمَّه، واللسان إذا فقد نطقه، بل فساد القلب إذا خلا من محبّة فاطره وبارئه وإلهه الحق أعظم من فساد البدن إذا خلا من الروح، وهذا الأمر لا يصدِّق به إلّا من فيه حياة).

وكلما كانت محبة العبد لربه أقوى كان الصدر أفسح وأشرح، وإنْ حصل له ضيق في ماله وعيشه وإن حصلت له صنوف الأذى من الخلق، فأنسه في إقباله بكليته على ربه ومولاه، يعرف ذلك من

أحسَّ بهذه اللذة، ولذا تجد أهل الإقبال على الله والمحبة له بكليتهم تضيق صدورهم عند رؤية أصحاب البطالة واللهو والجَهالة، والانشغال بالدنيا والإعراض عن الله تعالى وعن التعلم والتعليم، ويدخل في ذلك أهل البدع فرؤيته لهم قَذَى عينه.

وقذى العين: ما يتكون في العين من رمص وغمص وغيرهما، وهي مؤذية للعين.

فهؤلاء مخالطتهم أذى له، لأنهم يقطعونه عن السير إلى الله تعالى، ومخالطتُهم حُمَّى روحه، فتمرض روحه إذا خالط أمثال هؤلاء.

فأهل الإقبال على الله تعالى أشدُّ محافظة على أوقاتهم، وعلى صرفها فيما ينفعهم في دينهم، ولذلك يتأذون من كل صارف يصرفهم عن الانشغال بما ينفعهم.

ومن لطائف ما يُذكر في هذا الباب ما ذكره ابن الجوزي رحمه الله وهو يتحدث عن البطَّالين الذين يتوسعون في زيارة أهل العلم ويضيِّعون أوقاتهم في ما لا نفع فيه: (فتراهم يمشي بعضهم إلى بعض، ولا يقتصرون على الهناء والسلام، بل يمزجون ذلك بما ذكرته من تضييع الزمان، فلما رأيت أنَّ الزمان أشرفُ شيء، والواجبُ انتهابه بفعل الخير، كرهتُ ذلك، وبقيت معهم بين أمرين: إنْ أنكرت عليهم، وقعت وحشةٌ، لموضع قطع المألوف! وإنْ تقبَّلتُهُ منهم، ضاع الزمان! فصرتُ أدافع اللقاء جهدي: فإذا غُلِبتُ، قصَرتُ في الكلام، لأتعجَل الفراق، ثم أعددت أعمالًا تمنع من المحادثة لأوقات لقائهم، لئلا يمضي الزمان فارغًا، فجعلت من

المستعَد للقائهم: قطعَ الكاغد[ورق الكتابة]، وبريَ الأقلام، وحزمَ الدفاتر، فإنَّ هذه الأشياء لا بدَّ منها، ولا تحتاج إلى فكرٍ، وحضورِ قلب، فأرصدتها لأوقات زيارتهم، لئلا يضيع شيء من وقتي، نسأل الله عز وجل أنْ يعرِفنا شرف أوقات العمر، وأن يوفقنا لاغتنامه).

قال المؤلف رحمه الله:

ومن أعظم أسباب ضيق الصدر الإعراض عن الله تعالى، وتعلق القلب بغيره، والغفلة عن ذكره، ومحبة سواه، فإنَّ من أحب شيئا غير الله عذب به، وسجن قلبه في محبة ذلك الغير، فما في الأرض أشقى منه، ولا أكسف بالا، ولا أنكد عيشا، ولا أتعب قلبًا، فهما محبتان، محبة هي جنة الدنيا، وسرور النفس، ولذة القلب، ونعيم الروح وغذاؤها ودواؤها، بل حياتها وقرة عينها، وهي محبة الله وحده بكل القلب، وانجذاب قوى الميل والإرادة، والمحبة كلها إليه.

ومحبة هي عذاب الروح، وغم النفس، وسجن القلب، وضيق الصدر، وهي سبب الألم والنكد والعناء، وهي محبة ما سواه سبحانه.

الشرح:

من أعظم أسباب ضيق الصدر: الإعراض عن الله تعالى.

والإعراض عن الله تعالى: هو انصراف القلب عنه، مع معرفة العبد بتقصيره في جنب الله تعالى.

قال ابن القيم رحمه الله في كتابه الفوائد: (من أعجب الْأَشْيَاء أَن تعرفه ثمَّ لَا تحبه وَأَن تسمع داعيه ثمَّ تتأخر عَن الْإِجَابَة وَأَن تعرف قدر الرِّبْح فِي مُعَامَلَته ثمَّ تعْمل غَيره وَأَن تعرف قدر غَضَبه ثمَّ تتعرّض لَهُ وَأَن تذوق ألم الوحشة فِي مَعْصِيَته ثمَّ لَا تطلب الْأنس بِطَاعَتِهِ وَأَن

تذوق عصرة الْقلب عِنْد الْخَوْض فِي غير حَدِيثه والْحَدِيث عَنهُ ثمَّ لَا تشتاق إِلَى انْشِرَاح الصَّدْر بِذكرِهِ ومناجاته وَأَن تذوق الْعَذَاب عِنْد تعلق الْقلب بِغَيْرِهِ وَلَا تهرب مِنْهُ إِلَى نعيم الإقبال عَلَيْهِ والإنابة إِلَيْهِ وأعجب من هَذَا علمك أَنَّك لابد لَك مِنْهُ وَأَنَّك أحْوج شَيْء إِلَيْهِ وَأَنت عَنهُ معرض وَفِيمَا يبعدك عَنهُ رَاغِب).

والإعراض عن الله تعالى على قسمين:

الأول: الإعرض عن دين الله تعالى بالكلية، بأن لا يتعلم المرء دين الله بالكلية ولا يعمل به، فهذا ناقض من نواقض الإسلام كما قال الله جلَّ وعلا: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾[السجدة: ٢٢].

الثاني: الإعراض الجزئي، وهو هجر القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة هجرًا جزئيًا مع العمل بأحكامهما فهذا نوع ترك لا يخرج من الملَّة، لكنه سبب في ضعف إيمان العبد، وقد ينال العبد بسبب ذلك نوع عقوبة، ومن ذلك الضيق الذي يجده العبد في قلبه بسبب التقصير في العمل بأحكام الشرع.

قال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رحمه الله في منهاج التأسيس والتقديس عندما سئل عن الإعراض الناقض للإسلام: " إنَّ أحوال الناس تتفاوت تفاوتًا عظيمًا وتفاوتهم بحسب درجاتهم في الإيمان إذا كان أصل الإيمان موجودًا والتفريط والترك إنما هو فيما دون ذلك من الواجبات والمستحبات، وأمَّا إذا

عدم الأصل الذي يدخل به الإسلام وأعرض عن هذا بالكلية، فهذا كفر إعراض، فيه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقوله: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤] "[1].

وللإعراض عن الله تعالى مظاهر عديدة منها:

تعلق القلب بغير الله تعالى.

وهو من أعظم الحجب التي تحول بين العبد وبين إفراد الله وحده بالعبادة، فغاية التعلُّق بغير الله شرك، وأن يُدعى معه إلهٌ آخر، ومنه التعلق بالموتى، والجن والسحرة والمنجمين ونحوهم من أدعياء علم الغيب.

والتعلق بغير الله قد لا يصل إلى الشرك، كالتعلق الحزبي بالعلماء والمشايخ والطوائف وأصحاب الشبهات والشهوات، ونحوهم، مما لايصل إلى الاعتقاد في كونهم مشرعين مع الله، بل حزبية وحمية لهم فإنَّ هذا التعلق يصدُّ عن الحق واتِّباعه، فإذا تعلق القلب بشيء سوى الله فسيرى أنَّ فيه أُنسَه وسروره وشفاء قلبه بل ولذَّته وتنعمه وحينها تعمى عين العبد عن النظر إلى مساويء هذا المتَعلَّقِ به، وتصم الأذن عن سماع العذل فيه كما قيل: وكذَّبتُ طرفي فيك والطرفُ صادقُ ... وأسْمَعْتُ أذْني منك ما ليس تسمعُ.

ومن مظاهر الإعراض عن الله تعالى: الغفلة عن ذكر الله تعالى.

والغفلةُ هي: فقد الشُّعور بما حقُّه أن يُشْعَرَ به، وقيل: هي أنْ لايخطر الشيء ببال المرء.

ومن صور الغفلة: الغفلة عن ذكر الله تعالى، وهي مذمومة، قال الله تعالى: (وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ).

والأمر بالذكر أمر للنبي صلى الله عليه وسلم ولأمته، فإنه ما خوطب به خوطبت به الأمة ما لم يرد نص بالتخصيص، والذكر لله تعالى يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بهما، وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله، ودلَّ قوله: (ولا تكن من الغافلين) على التحذير من الغفلة عن ذكر الله تعالى.

قال ابن القيم رحمه الله في الوابل الصيب: (لا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الإحسان، كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت).

وقال أيضًا: (على قدر غفلة العبد عن الذّكر يكون بعده عن الله).

وقال أيضًا: (إنَّ حجاب الهيبة لله- عزّ وجلَّ- رقيق في قلب الغافل).

وقال أيضًا: (إنَّ الغافل بينه وبين الله- عزّ وجلَّ- وحشة لا تزول إلّا بالذّكر)

ومن مضار الغفلة عن ذكر الله تعالى:

أنّها تجلب الشياطين، فلا سبيل إلى تفريق جمع الشَّياطين التي تحوط

بالإنسان إلا بذكر الله عزَّ وجلَّ، والغفلة تسخط الرحمن، وتنزِّل الهمَّ والغمَّ في القلب وتبعد عنه الفرح والسرور وتميت القلب، وهي مدعاة للوسوسة والشكوك، وتورث العداوة والبغضاء وتذهب الحياء والوقار بين النَّاس، وتبلِّد الذِّهن وتسدُّ أبواب المعرفة، وتبعد العبد عن الله- عزّ وجلّ- وتجرّه إلى المعاصي.

ومن مظاهر الإعراض عن الله تعالى: محبة ما سوى الله تعالى.

ومن صور محبة ما سوى الله: صرف العبادة لغير الله تعالى، والتسوية بين الخالق والمخلوق في عبادة المحبة.

ومن صور محبة ما سوى الله: الابتلاء بمرض الإعجاب، والعشق، والحب المحرَّم، وهذا لا صلة له بالمحبة في الله، لا من قريبٍ، ولا من بعيدٍ، وهذه محبَّة الفُسّاق، وهي مفضية إلى تعلُّق القلب والفكر بالحرام، وإلى انصراف العبد عن المطالب العالية.

ومَنْ أحبَّ شيئًا غير الله عذب به، وسجن قلبه في محبة ذلك الغير، فما في الأرض أشقى منه، ولا أكسفُ بالًا، ولا أنكدُ عيشًا، ولا أتعبُ قلبًا.

ولهذا تجد عُشاق الشهوات أضيقَ الناس صدرًا، وأبعدهم عن الانشراح والخير والراحة والطُّمأنينة بسبب ما وقع في قلوبهم من الشَّر والفساد، وحُبِّ المعاصي، وحُبِّ ما حرَّمه الله، والميل إلى ما حرَّم الله تعالى.

ومنه ما وقع لقيس بن المَلَوّح العامري الملقَّب بمجنون ليلى، أحدِ شعراء العصر الأموي، فإنه تعلَّق بليلى بنت سعد العامرية بسبب

نظرةٍ محرَّمة لها، حتى إنه كان إذا دخل القرية بعدما ترحل منها ليلى، يمشي مثلَ المجنون، ويقبل جدران القرية كلَّها، وهو يقول:

أَمُرُّ عَلى الدِّيارِ دِيارِ لَيْلى ... أُقَبِّلُ ذَا الجِدارَ وذَا الجِدارا
ومَا حُبُّ الدِّيارِ شَغَفْنَ قَلْبي ... ولكِنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيارا.

وقال وهو في الحج:

ذكرتكِ والحجيج لَهُم عجيجُ ... بِمَكَّة والقلوبُ لَهَا وجيبُ
فَقلتُ وَنحن فِي بلدٍ حرَام ... بِهِ لله أخلصتِ الْقُلُوبُ
إِلَيْك أَتُوبُ يَا رَحْمَن مِمَّا ... جنيتُ فقد تكاثرت الذُّنُوبُ
وَأما عَن هوى ليلى وتركى ... زيارتَهَا فاني لَا أَتُوبُ

وبسبب التعلق بالعشق الممنوع هام مجنون ليلى على وجهه ينشد الأشعار ويأنس بالوحوش، فيرى حينا في الشام وحينا في نجد وحينا في الحجاز، إلى أن وجد ملقى بين أحجار وهو ميت فحمل إلى أهله.

والعجيب أنَّ بعض الجهال الذين يُقبِّلون جدران القبور والشبابيك الموضوعة على بعض الأماكن المقدسة، آل الأمر بهم إلى عبادة القبور.

قال الشيخ حمود بن عبدالله التويجري رحمه الله في كتابه: القول البليغ في التحذير من جماعة التبليغ: (وقد ذُكِر أنَّ ذلك بسبب ما يذكره بعض علماء التبليغيّين في بياناتهم من شعر مجنون ليلي وقوله:

أَمُرُّ عَلى الدِّيارِ دِيارِ لَيْلى ... أُقَبِّلُ ذَا الجِدارَ وذَا الجِدارا

ومَا حُبُّ الدِّيارِ شَغَفْنَ قَلْبي ... ولكِنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيارا).

والصوفية قد عشقوا الصور الجميلة لاعتقادهم أنها مظاهر الحق، فتصوف وحدة الوجود دعوة إلى خلاعة ماجنة وإلى حبِّ الشهوات الرذيلة، حيث جعلوا العشق الطبيعي سلَّماً للحب الإلهي، وحاكوا في كتبهم الحكايات الغزلية والأساطير العشقية، وجعلوا مجنون ليلى قدوة لهم في حبِّهم لله تعالى.

ومن صور محبة ما سوى الله: التعلُّق بالأشخاص تعلُّقًا يُفضي إلى التحزُّب لهم، فيتعلَّق بأشياخه، أو بمذهب بلده، أو بحزبٍ ينتمي إليه، يوالي ويعادي عليه.

ومنه ما وقعت فيه بعض الطوائف المنحرفة كالصوفية، كقولِ بعضهم: كن أمام شيخك كالميّت أمام مغسِّله، وقول بعضهم: «لا تعترض فتنطرد»، أي: لا تخالف الشيخ حتى لا تُطرد وتُبَعد.

قال ابن القيم رحمه الله: (فهما محبتان، محبة هي جنة الدنيا، وسرور النفس، ولذة القلب، ونعيم الروح وغذاؤها ودواؤها، بل حياتها وقرة عينها، وهي محبة الله وحده بكل القلب، وانجذاب قوى الميل والإرادة، والمحبة كلها إليه.

ومحبة هي عذاب الروح، وغم النفس، وسجن القلب، وضيق الصدر، وهي سبب الألم والنكد والعناء، وهي محبة ما سواه سبحانه).

المراد: أنَّ المحبة قسمان:

القسم الأول: مَحَبَّةُ اللَّهِ وَحْدَهُ بِكُلِّ الْقَلْبِ، بحيث لا تنقسم المحبة بينه وبين غيره، وَانْجِذَابُ قُوَى الْمَيْلِ وَالْإِرَادَةِ وَالْمَحَبَّة كُلّهَا إِلَيْهِ، فلا يميل إلا إلى ربه، ولا يفعل إلا ما يريده مولاه منه، فهذه هِيَ جَنَّةُ الدُّنْيَا، وَسُرُورُ النَّفْسِ، وَلَذَّةُ الْقَلْبِ، وَنَعِيمُ الرُّوحِ وَغِذَاؤُهَا وَدَوَاؤُهَا، بَلْ حَيَاتُهَا وَقُرَّةُ عَيْنِهَا.

القسم الثاني: محبةُ ما سوى الله تعالى، ومنه صرف المحبة لغير الله من المخلوقات، فهذه المحبةُ عَذَابُ الرُّوحِ، وَغَمُّ النَّفْسِ، وَسِجْنُ الْقَلْبِ، وَضِيقُ الصَّدْرِ، وَهِيَ سَبَبُ الْأَلَمِ وَالنَّكَدِ وَالْعَنَاءِ.

والذي يعقل الفرق بين هذين القسمين هم أهلُ الإيمان والعلم والعمل، فيحصلُ لهم التَّلذذ بمحبَّة الله والأُنسُ به، أما مَن حُجب عن ذلك، وغفل عنه فهو في بُعْدٍ عن القسم الأول، لا يُحسُّ به، ولا يدريه، ولا يعلمه، ولا يستشعر أنه على غير الصراط المستقيم حتى يراجع نفسه ويتوب إلى ربه، فتزول الحجب المانعة عن قبول الحق.

قال المؤلف رحمه الله:

ومن أسباب شرح الصدر دوام ذكره على كل حال، وفي كلِّ موطن، فللذكر تأثير عجيب في انشراح الصدر ونعيم القلب، وللغفلة تأثير عجيب في ضيقه وحبسه وعذابه.

الشرح:

من عبوديات اللسان: ذكر الله جلَّ وعلا.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: (**والمراد بالذِّكر**: الإتيان بالألفاظ التي ورد التّرغيب في قولها، والإكثار منها، مثل الباقيات الصّالحات، وهي: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر» وما يلتحق بها من الحوقلة والبسملة والحسبلة، والاستغفار ونحو ذلك، والدعاء بخيري الدّنيا والآخرة.

ويطلق ذكر الله أيضًا ويراد به: المواظبة على العمل بما أوجبه أو ندب إليه كتلاوة القرآن، وقراءة الحديث، ومدارسة العلم، والتَّنفُّل بالصلاة، ثم الذِّكرُ يقع تارة باللسان ويؤجر عليه النَّاطق، ولا يشترط استحضاره لمعناه ولكن يشترط ألّا يقصد به غير معناه، وإن انضاف إلى النُّطق الذكرُ بالقلب فهو أكمل، فإن انضاف إلى ذلك استحضار معنى الذكر وما اشتمل عليه من تعظيم الله تعالى ونفي النَّقائص عنه ازداد كمالًا، فإن وقع ذلك في عمل صالح ممَّا فرض من صلاة أو جهاد أو غيرهما ازداد كمالًا، فإن صحَّ التوجُّه وأخلص لله تعالى في ذلك فهو أبلغ الكمال).

فمن أسباب انشراح الصدر: مداومة العبد على ذكر الله تعالى.

قال الله تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ) أي: يزول قلقها واضطرابها، وتحضرها أفراحها ولذاتها، (أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) أي: حقيق بها وحريٌّ أن لا تطمئن لشيء سوى ذكره، فإنه لا شيء ألذَّ للقلوب ولا أشهى ولا أحلى من محبة خالقها، والأنس به ومعرفته، وعلى قدر معرفتها بالله ومحبتها له، يكون ذكرها له.

وقال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا – وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا).

ففي هذه الآية يأمر الله تعالى المؤمنين، بذكره ذكرًا كثيرًا، من تهليل، وتحميد، وتسبيح، وتكبير وغير ذلك، من كلِّ قول فيه قربة إلى الله، **وأقلُّ ذلك**: أنْ يلازم الإنسانُ أورادَ الصباح، والمساء، وأدبار الصلوات الخمس، وعند العوارض والأسباب، وينبغي مداومة ذلك، في جميع الأوقات، على جميع الأحوال، فإنَّ ذلك عبادة يسبق بها العامل، وهو مستريح، وداع إلى محبة الله ومعرفته، وعون على الخير، وكف اللسان عن الكلام القبيح. (وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) أي: أول النهار وآخره، لفضلها، وشرفها، وسهولة العمل فيها.

وقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ).

قال السعدي رحمه الله: (أي: أكثر من ذكر الله وتسبيحه وتحميده والصلاة فإنَّ ذلك يوسِّع الصدرَ ويشرحه ويعينك على أمورك).

فعلى العبد أن يحرص على دوام ذكر الله تعالى على كلِّ حال.

فقد وصف الله تعالى أولي الألباب بأنهم: (يذكرون الله) في جميع أحوالهم: (قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم)، وهذا يشمل جميع أنواع الذكر بالقول والقلب، ويدخل في ذلك الصلاة قائمًا، فإنْ لم يستطع فقاعدًا، فإنْ لم يستطع فعلى جنب.

وعلى العبد أن يحرص على دوام ذكر الله تعالى في كلِّ موطن.

فما جاء من أذكارٍ مطلقة أتى بها في كلِّ حين، وما جاء من أذكارٍ مُقيَّدة، أتى بها كما وردت في أوقاتها، كأذكار الصباح والمساء، ودخول المنزل والخروج منه، ودخول المسجد والخروج منه، وأذكار النوم والاستيقاظ منه، والسفر ونحو ذلك.

ثم ذكر ابن القيم فائدة من فوائد الذكر فقال: (فللذكر تأثير عجيب في انشراح الصدر ونعيم القلب)، فالذكرُ يزيل الهمَّ والغمَّ عن القلب، ويجلب للقلب الفرح والسُّرور والبسط، ويقوِّي القلب والبدن، وينوِّر الوجه والقلب.

وذكر الله عزَّ وجلَّ من أكبر العون على طاعة الله تعالى فإنَّه يحبِّبها للعبد ويسهِّلها عليه، ويجعل قرَّة عينه فيها.

والذكرُ سبب تنزيل السَّكينة، وغشيان الرَّحمة، وحفوف الملائكة بحلقات الذِّكر.

والذكرُ يزيل الوحشة بين العبد وبين ربِّه تبارك وتعالى، وإذا زالت الوحشة انشرح الصدر، وذكرُ اللهِ تعالى يورِّثُ العبدَ ذكرَ الله تعالى له

كما قال الله تعالى: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)، [البقرة: ١٥٢]، فأمر تعالى بذكره، ووعد عليه أفضل جزاء، وهو ذكره لمن ذكره.

قال ابن القيم رحمه الله في الوابل الصيّب: (ولو لم يكن في الذِّكر إلّا هذه وحدها لكفى بها فضلًا وشرفًا).

ثم قال: (وللغفلة تأثير عجيب في ضيقه وحبسه وعذابه)، فالغافل حجابُ الهيبة من الله تعالى رقيق في قلبه، وابتلاء العبد بداء الغفلة دليل على تعلق العبد بغير الله، وتلك من موجبات حصول ضيق الصدر.

وقد ورد تشبيه من لا يذكر ربه بالميت، فعن أَبي مُوسى الأشعري رَضِيَ الله عَنْهُ قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: "مَثَلُ الَّذي يَذْكُرُ رَبَّهُ والَّذي لا يَذْكُرُ ربَّه؛ مَثَلُ الحيِّ والميِّتِ" رواه البخاري ومسلم.

قال الشوكاني رحمه الله: (وَفِي هَذَا التَّمْثِيل منقبة للذاكر جليلة وفضيلة لَهُ نبيلة وَأَنه بِمَا يَقع مِنْهُ من ذكر الله عز وَجل فِي حَيَاة ذاتية وروحية لما يَغْشَاهُ من الْأَنْوَار ويصل إِلَيْهِ من الأجور كَمَا أَن التارك للذِّكر وَإِن كَانَ فِي حَيَاة ذاتية فَلَيْسَ لَهَا اعْتِبَار بل هُوَ شَبيه بالأموات).

وقد تقدَّم الكلامُ عن مضار الغفلة عن ذكر الله تعالى، وأنّها تجلب الشياطين، فلا سبيل إلى تفريق جمع الشَّياطين التي تحوط بالإنسان إلا بذكر الله عزَّ وجلَّ، والغفلة تسخط الرحمن، وتنزِّل الهمَّ والغمَّ في القلب وتبعد عنه الفرح والسرور وتميت القلب، وهي مدعاة للوسوسة والشكوك، وتورث العداوة والبغضاء وتذهب الحياء والوقار

بين النَّاس، وتبلِّد الذِّهن وتسدُّ أبواب المعرفة، وتبعد العبد عن الله- عزّ وجلّ- وتجرّه إلى المعاصي.

فمن أراد زوال الضيق والحبس والعذاب عن قلبه فليكثر من ذكر الله تعالى، فإنَّ الذِّكرَ يُذهبُ قسوةَ القلب، وقد قَالَ رَجُلٌ لِلْحَسَنِ البصري رحمه الله: يَا أَبَا سَعِيدٍ، أَشْكُو إِلَيْكَ قَسْوَةَ قَلْبِي، قَالَ: «أذبْهُ بالذكر»، فينبغي للعبد أنْ يداوي قسوة قلبه بذكر الله تعالى.

قال المؤلف رحمه الله:

ومنها: الإحسان إلى الخلق ونفعهم بما يمكنه من المال والجاه والنفع بالبدن وأنواع الإحسان.

فإنَّ الكريم المحسن أشرح الناس صدرًا، وأطيبهم نفسًا، وأنعمهم قلبًا، والبخيل الذي ليس فيه إحسان أضيق الناس صدرًا، وأنكدهم عيشا، وأعظمهم همًا وغمًا.

وقد «ضرب رسول الله ﷺ في الصحيح مثلًا للبخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جنتان من حديد، كلما همَّ المتصدق بصدقة اتسعت عليه وانبسطت حتى يجر ثيابه ويعفي أثره، وكلما هم البخيل بالصدقة لزمت كل حلقة مكانها ولم تتسع عليه»، فهذا مثل انشراح صدر المؤمن المتصدق، وانفساح قلبه، ومثل ضيق صدر البخيل، وانحصار قلبه.

الشرح:

الإحسان ضد الإساءة، وهو على قسمين:

الأول: إحسان في عبادة الخالق: بأن يعبد المرءُ اللهَ تعالى كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإن الله يراه، وهو الجد في القيام بحقوق الله على وجه النصح، والتكميل لها.

الثاني: إحسان في حقوق الخلق.

والإحسان إلى الخلق: هو بذل جميع المنافع من أيِّ نوع كان، حسية كانت أو معنوية، ولكنه يتفاوت بتفاوت المحسَن إليهم،

وحقهم ومقامهم، وبحسب الإحسان، وعظم موقعه، وعظيم نفعه، وبحسب إيمان المحسن وإخلاصه، والسبب الداعي له إلى ذلك.

وأولى ما ينبغي الحرص على الإحسان إليهم: الإحسان إلى الوالدين والزوجة والولد، والجيران والأقارب واليتامى والمساكين ومن أساء إليك وغيرهم ممن هم أقرب من غيرهم.

وصور الإحسان إلى الخلق كثيرة، وقد ذكر المؤلف رحمه الله شيئًا منها، ومن ذلك:

الإحسان إليهم بالمال، من صدقة وقرضة وتنازل عن الحقوق المالية ونحو ذلك.

والإحسان إليهم بالجاه، فيبذل جاهه في نفعهم وهو من الشفاعة الحسنة.

والإحسان إليهم بنفعهم بالبدن، كإعانة من يعمل عملًا، وحمل المتاع عنه، أو معه، والعمل لمن لا يحسن العمل ونحو ذلك.

وباب الإحسان إلى الخلق واسع، وفيه فضل عظيم ومما يدل على فضله:

عموم قول الله تعالى: (وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)، وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان، لأنه لم يقيده بشيء دون شيء.

فيدخل فيه الإحسان بالمال، وبالجاه، وبالشفاعات وبالمشورة ونحو ذلك من أنواع المساعدات.

ومن صور الإحسان: الإحسان بالأمر بالمعروف، والنهي عن

المنكر، وتعليم العلم النافع، وقضاء حوائج الناس، من تفريج كرباتهم وإزالة شداتهم، وعيادة مرضاهم، وتشييع جنائزهم، وإرشاد ضالهم، ونحو ذلك، مما هو من الإحسان الذي أمر الله تعالى به.

ومما ورد في فضل الإحسان إلى الخلق: حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ) رواه مسلم.

فهذا الحديث فيه فضل قضاء حوائج المسلمين ونفعهم بما يتيسر من علم أو مال أو معاونة أو إشارة بمصلحة أو نصيحة أو غير ذلك، وفيه أنَّ الجزاء من جنس العمل.

ويدخل في الإحسان إلى الخلق: الإحسان إلى البهائم ونحوها.

فعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ قال: (إنَّ الله كتب الإحسان على كلِّ شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحدَّ أحدُكم شفرته فليرح ذبيحته) رواه مسلم.

قال المباركفوري رحمه الله: (أي: إلى كلِّ شيء، أو على بمعنى: في، أي: أمرَكم بالإحسان في كلِّ شيء، والمراد منه: العموم الشامل للإنسان حيًا وميتًا).

وقال النووي رحمه الله: (وقوله صلى الله عليه وسلم: فأحسنوا

القتلة عام في كل قتيل من الذبائح والقتل قصاصًا وفي حَدٍّ ونحو ذلك وهذا الحديث من الأحاديث الجامعة لقواعد الإسلام).

والإحسان إلى الخلق مع الإمكان من شكر الله تعالى.

كما قال الله تعالى: (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ [القصص: ٧٧]

قال الشوكاني رحمه الله في تفسير قوله: (وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ): (أي: أحسن إلى عباد الله كما أحسن الله إليك بما أنعم به عليك من نعم الدنيا).

فعلى العبد أن يسعى في الإحسان الواجب والمستحب إلى الخلق كلٌّ حسب استطاعته، **وعلى العبد أنْ لا يحقر من صور الإحسان شيئًا وإن قلَّت،** فعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بوَجْهٍ طَلْقٍ" رواه مُسْلِمٌ.

فإنْ عجز عن الإحسان إلى الخلق فإنه معذور، كما قال الله تعالى في عموم الأوامر الواجبة والمستحبة: (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم" متفق عليه.

ولكن لا يعذر الإنسان إلا إذا بذل جهده وانسدت عليه أبواب الاستطاعة.

ثم ذكر المؤلف رحمه الله ثمرة من ثمار الإحسان إلى الخلق وثمرة من ثمار عدم الإحسان إليهم فقال: (فإنَّ الكريم المحسن أشرح الناس صدرًا، وأطيبهم نفسًا، وأنعمهم قلبًا، والبخيل الذي ليس فيه إحسان أضيق الناس صدرًا، وأنكدهم عيشا، وأعظمهم همًا وغمًا).

فالمحسنُ صاحبُ الإخلاص والمتابعة في إحسانه في راحةٍ وطيب نفس ونعيم قلب بما يرى من إحسانٍ للناس، ومُواساةٍ، وشفاعةٍ، ونحو ذلك.

والبخيل ليس فيه إحسان لنفسه، فكيف يحسن لغيره؟ فقلبه ممتلئٌ من الضيق والحرج وحُبِّ المال، وكراهة الإحسان، فهو في ضيقٍ وحرجٍ عند خروج أي مالٍ له، فهو يخشى على ماله من الزوال أو النقصان.

قال ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين: (فإنَّ الإحسان يفرح القلب ويشرح الصدر ويجلب النعم ويدفع النقم، وتركه يوجب الضيم والضيق ويمنع وصول النعم إليه فالجبنُ ترك الإحسان بالبدن والبخل ترك الإحسان بالمال).

ثم ذكر ابن القيم رحمه الله مثلًا للبخيل والمتصدق، وهذا المثل جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه أنه سمعَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ: " مَثَلُ البخيلِ والمنفِقِ، وفي روايةٍ: والمتصدِّق، كمثلِ رَجلَينِ عليهما جبَّتانِ، وفي روايةٍ: جُنَّتان من حديدٍ، قد اضطرَّت أيديهما من ثُديِّهما إلى تَراقِيهِما، فأمَّا المنفِق فلا ينفِقُ إلا سبَغتْ أو وفَرَتْ على جِلْدِهِ؛ حتى تُخفيَ بَنانَهُ، وتعْفُوَ أثَرَهُ،

وأمَّا البخيلُ فلا يُريدُ أن ينفِقَ شيئًا إلا لَزِقَت كلُّ حَلْقةٍ مكانَها، وانْضَمَّتْ يداه إلى تراقيه، فهو يجتهد أن يُوَسِّعَها ولا تتَّسع".

قَالَ الْخَطَّابِيُّ رحمه الله: (وَهَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ النَّبِيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْبَخِيلِ وَالْمُتَصَدِّقِ، فَشَبَّهَهُمَا بِرَجُلَيْنِ أَرَادَ كُلّ وَاحِد مِنْهُمَا أَنْ يَلْبَسَ دِرْعًا يَسْتَتِرُ بِهِ مِن سِلَاحِ عَدُّوِهِ، فَصَبَّهَا عَلَى رَأْسِهِ لِيَلْبَسهَا، وَالدُّرُوع أَوَّل مَا تَقَعُ عَلَى الصَّدْرِ وَالثَّدْيَيْنِ إِلَى أَنْ يُدْخِلَ الْإِنْسَانُ يَدَيْهِ فِي كُمَّيْهَا، فَجَعَلَ الْمُنْفِقَ كَمَنْ لَبِسَ دِرْعًا سَابِغَة فَاسْتَرْسَلَتْ عَلَيْهِ حَتَّى سَتَرَتْ جَمِيعَ بَدَنِهِ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: " حَتَّى تَعْفُوَ أَثَره " أَيْ: تَسْتُرُ جَمِيع بَدَنِهِ.

وَجُعِلَ الْبَخِيلُ كَمَثَلِ رَجُلٍ غُلَّتْ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ، كُلَّمَا أَرَادَ لُبْسهَا اِجْتَمَعَتْ فِي عُنُقِهِ فَلَزِمَتْ تَرْقُوَته، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: " قَلَصَتْ " أَيْ: تَضَامَنَتْ وَاجْتَمَعَتْ

وَالْمُرَاد: أَنَّ الْجَوَادَ إِذَا هَمَّ بِالصَّدَقَةِ اِنْفَسَحَ لَهَا صَدْرُهُ وَطَابَتْ نَفْسه فَتَوَسَّعَتْ فِي الْإِنْفَاقِ، وَالْبَخِيلَ إِذَا حَدَّثَ نَفْسه بِالصَّدَقَةِ شَحَّتْ نَفْسه فَضَاقَ صَدْرُهُ وَانْقَبَضَتْ يَدَاهُ).

قال ابن القيم رحمه الله: (فهذا مَثَلُ انشراحِ صدرِ المؤمن المتصدِّقِ، وانفساحِ قلبه، ومَثَلُ ضيقِ صدرِ البخيل، وانحصارِ قلبه).

فالنفقة والبذل والإحسان سبب لانشراح الصدر، والبخلُ سبب لضيق الصدر، وسيأتي أنَّ البُخلَ يلازم الجُبن، والكرمَ يلازم

الشجاعة، فإذا رأيت كريمًا سخيًا فاعلم بأنه شجاع، وإذا رأيت بخيلًا شحيحًا فاعلم بأنه جبان.

قال المؤلف رحمه الله:

ومنها الشجاعة، فإنَّ الشجاع منشرح الصدر، واسع البطان، متسع القلب، والجبان أضيق الناس صدرًا، وأحصرهم قلبًا، لا فرحة له ولا سرور، ولا لذة له، ولا نعيم إلا من جنس ما للحيوان البهيمي، وأما سرور الروح ولذتها ونعيمها وابتهاجها فمحرَّم على كلِّ جبان، كما هو محرم على كلِّ بخيل، وعلى كلِّ معرض عن الله سبحانه، غافل عن ذكره، جاهل به وبأسمائه تعالى وصفاته ودينه، متعلق القلب بغيره.

وإنَّ هذا النعيم والسرور يصير في القبر رياضًا وجنة، وذلك الضيق والحصر ينقلب في القبر عذابًا وسجنًا، فحال العبد في القبر كحال القلب في الصدر نعيمًا وعذابًا، وسجنًا وانطلاقًا، ولا عبرة بانشراح صدر هذا لعارض، ولا بضيق صدر هذا لعارض، فإنَّ العوارض تزول بزوال أسبابها، وإنما المعوَّل على الصفة التي قامت بالقلب توجب انشراحه وحبسه، فهي الميزان، والله المستعان.

الشرح:

الشجاعة في اللغة: شدَّة القلب عند البأس، وأصل هذه المادة يدل على جرأة وإقدام.

وفي الاصطلاح: (هيئة حاصلة للقوة الغضبية بين التهور والجبن بها يُقدَم على أمور ينبغي أن يُقْدَم عليها).

والشجاعة المحمودة مجاهدة الإنسان نفسَه أو غيرَه، وكلٌّ واحدٍ منهما ضربان:

الأول: مجاهدة النفس، وتكون بالقول: وذلك بالتعلُّم، والرجوع إلى الحق إذا تبيَّن له وتكون بالفعل: وذلك بقمع الشهوة، وتهذيب الحمية.

الثاني: مجاهدة الغير، وتكون بالقول، كتزيين الحق للناس وتعليمهم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة، والصدع بالحق وعيب أهل الباطل، هذا هو الأصل ولا يُصار إلى غيره إلا في حال ترتب مفسدة أعظم.

جاء عن ابن طاهر المقدسي الحافظ رحمه الله؛ أنه سمع الإمام أبا إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري بهراة يقول: "عُرِضت على السيف خمس مرات، لا يقال لي: ارجع عن مذهبك، لكن يقال لي اسكت عمن خالفك، فأقول: لا أسكت".

فالصدع بالحق وإشهار عيوب أهل البدع هو الأصل؛ لكنْ لابدَّ فيه من اجتماع ثلاثة أمورٍ، وهي: الإخلاص والقوة والاستطاعة.

قال الذهبي رحمه الله في شأن محنة الإمام أحمد رحمه الله:

"الصدع بالحق عظيم، يحتاج إلى قوة وإخلاص، فالمخلص بلا قوة يعجز عن القيام به والقوي بلا إخلاص يُخذل، فمَن قام بهما كاملًا فهو صديق، ومن ضعُف فلا أقل من التألم والإنكار بالقلب، وليس وراء ذلك إيمان، فلا قوة إلا بالله".

ومجاهدة الغير تكون بالفعل، كالإقدام في ساحات الوغى في الجهاد الشرعي في سبيل الله والاستهانة بالموت، وكالشجاعة في الأعمال التي تحتاج إلى تحمل المخاطر ورباطة الجأش، كرجال المطافئ، وعمَّال المناجم، والأطباء والممرضين وغيرهم.

والشجاعة أصل الفضائل: فمن اتَّصف بها فإنه يتحلى بخصال ذكرها ابن مسكويه في تهذيب الأخلاق، منها: تحليه بِكِبَرِ النفس، وهو، الاستهانة باليسير والاقتدار على حمل الكرائِهِ فصاحبه أبدًا يؤهل نفسه للأمور العظام مع استخفافه لها، وبالنجدة، وهي: ثقة النفس عند المخاوف حتى لا يخامرها جزع، وبعظم الهمة، وهي فضيلة للنفس تحتمل بها سعادة الجد وضدها حتى الشدائد التي تكون عند الموت، وبالثبات، وهو فضيلة للنفس تقوى بها على احتمال الآلام ومقاومتها في الأهوال خاصة، وبالحلم، وهو فضيلة للنفس تكسبها الطمأنينة فلا تكون شَغِبَةً ولا يحركها الغضب بسهولة وسرعة، وبالسكون، وهو عدم الطيش فهو إما عند الخصومات وإما في الحروب التي يذب بها عن الحريم أو عن الشريعة، وهو قوة للنفس تقسر حركتها في هذه الأحوال لشدتها، وبالشهامة، وهي الحرص على الأعمال العظام توقعا للأحدوثة الجميلة، وباحتمال الكدِّ، وهو قوة للنفس بها تستعمل آلات البدن في الأمور الحسية بالتمرين وحسن العادة.

والشجاعة تحمل صاحبها على عزَّة النفس وإيثار معالي الأخلاق والشيم.

قال ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين: (والشجاعة تحمله على عزة النفس، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل والندى، الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته. وتحمله على كظم الغيظ والحلم. فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يمسك عنانها، ويكبحها بلجامها عن النزغ والبطش. كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد: الذي يملك نفسه عند الغضب» [رواه البخاري]، وهو حقيقة الشجاعة، وهي ملكة يقتدر بها العبد على قهر خصمه).

والشجاع داخل تحت حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ » رواه مسلم، فالمؤمنون يتفاوتون في الخيرية، ومنها التفاوت في الشجاعة، فالشجاع خير وأحبُّ إلى الله من غير الشجاع.

قال ابن القيم رحمه الله: (فإنَّ الشجاع منشرح الصدر، واسع البطان، متسع القلب، والجبان أضيق الناس صدرًا، وأحصرهم قلبًا، لا فرحة له ولا سرور، ولا لذة له، ولا نعيم إلا من جنس ما للحيوان البهيمي).

الشجاعة لها أثر بالغ في راحة النفس، وطمأنينة القلب.

فالشجاع في أقواله وأفعاله: منشرح الصدر محبوب عند الله تعالى، واسع البطان، والبطانُ: حزام يُشَدُّ على البطن والمعنى: أنه رخيُّ البال في نعمةٍ وخصبٍ وسعة حالٍ، متسع القلب، فقلبه منشرح

بسبب شجاعته.

والجبانُ: أضيق الناس صدرًا، فهو مخالف للفطرة السليمة، والشرع والعقل الصريح التي تدل على أنَّ الشجاعة سبب لانشراح الصدر،

والجبانُ: أحصر الناس وأضيقهم قلبًا فهو محبوس القلب، لا فرحة له ولا سرور، وكيف تحصل الفرحة والسرور له وهو لا يفعل ما يحصل له به الفرح والسرور، ومنه مدُّ يد العون لغيره، فهو لا يفعل ذلك بل يحاول إخفاء ما لديه من النعم.

والجبانُ: لا لذَّةَ له، ولا نعيم إلا مِنْ جنس ما للحيوان البهيمي، فالحيوانات تتبع شهواتها، ولو كان في ذلك حتفُها.

والجبانُ: يتبع شهواته فلا همَّ له إلا مطعمه ومشربه، فيضن بماله عن البذل في سبيل الله، ويفارق المواطن التي تحتاج لشجاعة خوفًا على نفسه ودنياه.

فالجبن من أسباب الألم؛ لأنَّ الجبان تفوته محبوبات ومفرحات وملذوذات عظيمة لا تنال إلا بالبذل والشجاعة.

والجبانُ يعمل أعمالًا توجب له ضيق الصدر منها:

إهانة النفس وسوء العيش، وقلة الثبات والصبر، في المواطن التي يجب فيها الثبات، والرضى بكل رذيلة وضيم، مع تعرضه للبلاء في نفسه وأهله وماله، وسماعه كلَّ قبيحةٍ فاحشة من الشتم والقذف واحتمال كل ظلم من كل معامل وقلة الأنفة مما يأنف منه الناس.

قال ابن القيم رحمه الله: (وأما سرور الروح ولذتها ونعيمها

وابتهاجها فمحرَّم على كلِّ جبان، كما هو محرم على كلِّ بخيل، وعلى كلِّ معرض عن الله سبحانه، غافل عن ذكره، جاهل به وبأسمائه تعالى وصفاته ودينه، متعلق القلب بغيره).

سرور الروح هو: والنعيم والابتهاج واللذة والارتياح الذي يوجد في القلب عند حصول نفع أو توقعه أو اندفاع ضرر.

وهذا لا يحصل للجبان ولا للبخيل؛ لأنَّ السرور من أسبابه الشجاعة والبذل والعطاء، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعوذ بالله من الجبن والبخل، كما جاء في الصحيحين، وإنما تعوَّذ منهما؛ لأنهما يؤدِّيان إلى ضيق الصدر، فالجبن يؤدي إلى عذاب الآخرة؛ لأنَّ الجبان يشك في القَدَر، ويسيء الظن بالله فيخاف من كل عدوٍّ، ويفرُّ حال الجهاد في سبيل الله والفرار من الزحف من الكبائر التي جاء بها الوعيد الشديد فِي قول الله عز وجل: (وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) [الأنفال: ١٦].

وربما يُفتنُ الجبان عن دينه، فيرتدُّ بسبب جبنه وعدم تحمله للبلاء، والبخيل لا يجد لذة القلب ولا سروه بسبب تقتيره على نفسه، وعلى غيره، مع تعريض نفسه للعقوبة القدرية، فقد يبتلي الله تعالى من يبخل بحق الله وحق الفقير في ماله بالمجاعة والقحط، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «وما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين» أخرجه الطبراني في الأوسط، والحاكم، والبيهقي، وحسنه الألباني.

وأما عقوبة مانع الزكاة في الآخرة: فإنه قد عرَّض نفسه للوعيد في

الآخرة.

قال الله تعالى: (وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)، أي: ولا يظن الذين يبخلون، أي: يمنعون ما عندهم مما آتاهم الله من فضله، من المال والجاه والعلم، وغير ذلك مما منحهم الله، وأحسن إليهم به، وأمرهم ببذل ما لا يضرهم منه لعباده، فبخلوا بذلك، وأمسكوه، وضنوا به على عباد الله، وظنوا أنه خير لهم، بل هو شر لهم، في دينهم ودنياهم، وعاجلهم وآجلهم (سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) أي: يجعل ما بخلوا به طوقًا في أعناقهم، يعذبون به، فهؤلاء حسبوا أنَّ بخلهم نافعُهم، ومجدٍ عليهم، فانقلب عليهم الأمر، وصار من أعظم مضارهم، وسبب عقابهم).

قال الذهبي رحمه الله في السير: (الشجاعة والسخاء أخوان، فمن لم يجد بماله، فلن يجود بنفسه).

وسرور الروح ولذتها ونعيمها وابتهاجها محرَّمٌ أيضًا على كلِّ معرض عن الله سبحانه، ومنه الجبن فهو نوع إعراض، والجبان غافل عن ذكر الله تعالى، ومن ثمرات الغفلة عن الذكر موت القلب، فمن كان قلبه حيًا فإنه لا يغفل عن فعل مكارم الأخلاق ومنها الشجاعة، والجبانُ جاهل بالله تعالى وبأسمائه تعالى وصفاته ودينه، وجهله بالله لأن الله سبحانه وتعالى هو المعطي المانع وهو المنعم المتفضل، وهو الذي رزقه، وجاهل بدين الله تعالى الذي أمره بالإحسان والرحمة

والشفقة، والشجاعة.

والجبانُ متعلقُ القلب بغير الله، مشغول بغيره دائمًا، إما بماله ذاته أو بأمثاله من الجبناء والبخلاء، أو متعلق بغيره ليلتمس منهم البركة في ماله ليباركوا له في ماله.

قال ابن القيم رحمه الله: (وإنَّ هذا النعيم والسرور يصير في القبر رياضًا وجنة، وذلك الضيق والحصر ينقلب في القبر عذابًا وسجنًا، فحال العبد في القبر كحال القلب في الصدر نعيمًا وعذابًا، وسجنًا وانطلاقًا).

النعيم والسرور الذي يجده الشجاع ثمرة من ثمرات العمل الصالح، والعمل الصالحُ من أسباب نعيم القبر كما دلَّ عليه حديث البراء بن عازب رضي الله عنه المرفوع وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (...فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وافتحوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ، قَالَ: وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وغيرهم.

والضيقُ الذي عند الجبان والبخيل قد ينقلبُ في القبر عذابًا وسجنًا، ففعل الكبائر من أسباب عذاب القبر ويدخل في ذلك الفرار من الزحف، ومنع الزكاة.

فحالُ العبد في القبر كحال القلب في الصدر من جهة النعيم والعذاب والسجن والانطلاق، فلينظر العبد في حاله في الدنيا هل هو منشرح الصدر يعيش في نعيم وفي سرور، أو هو ضيق الصدر يعيش في سجن وحصر، فما يكون في الدنيا سيكون معه في القبر إلا من عفا الله عنه وتجاوز.

قال ابن القيم رحمه الله: (ولا عبرة بانشراح صدر هذا لعارض، ولا بضيق صدر هذا لعارض، فإنَّ العوارض تزول بزوال أسبابها، وإنما المعوَّل على الصفة التي قامت بالقلب توجب انشراحه وحبسه، فهي الميزان، والله المستعان).

الجبان والبخيل وغيرهما من العصاة قد تنشرح صدورهم في الدنيا في وقت دون آخر، لما يجدونه من البعد عن مواطن الشجاعة والنفقة، فيرون أنَّ سرورهم في سلامة أبدانهم وأموالهم، والشجاعُ قد يضيق صدره في وقت دون آخر بسبب قلة الأعوان، والكريم، قد يضيق صدره أحيانًا بسبب نقص ماله، أو ما يناله من أذى قوليٍّ، لكن لا يتمكن الضيق من نفسه، وقد قال الله تعالى في حق نبيه صلى الله عليه وسلم: (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ)، أريد به أنه يحدث له ضيق الصدر، ويتجدد له بسبب عنادهم وتعنتهم في قولهم: (لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ).

فلا عبرةَ بانشراح صدر الجبان والبخيل لعارض وبضيق صدر الشجاع والكريم لعارض، فالإنسان له أعراض بشرية، فيضيق صدر المؤمن في بعض الأحيان، ولكنه يزول بالإكثار من ذكر الله وتسبيحه

وتحميده والصلاة فإنَّ ذلك يوسِّع الصدرَ ويشرحه ويعين العبد على أموره، وقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ – فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ).

فالعوارض والحوائل والموانع تزول بأسبابها، كالأمراض تعرض للمرء ثم تزول إذا تناول الدواء، فكذلك ضيق الصدر إذا أصاب الشجاع الكريم عارض يزول بفعل أسباب زواله، من بحثٍ عن الأعوان، وحرص على التكسُّبِ ونحو ذلك، وكذلك ما يعرض للجبان والبخيل من انشراح صدر لحظيٍّ فإنه سيزول ويعود إلى الأصل وهو ضيق الصدر، فالمعوَّلُ على الحالة والصفة الغالبة التي يكون عليها الإنسانُ والتي قامت بقلبه فهذه هي التي توجب انشراح القلب وحبسه، فهي الميزان.

قال المؤلف رحمه الله:

ومنها بل من أعظمها: إخراج دغل القلب من الصفات المذمومة التي توجب ضيقه وعذابه، وتحول بينه وبين حصول البرء، فإن الإنسان إذا أتى الأسباب التي تشرح صدره، ولم يخرج تلك الأوصاف المذمومة من قلبه، لم يحظ من انشراح صدره بطائل، وغايته أن يكون له مادتان تعتوران على قلبه، وهو للمادة الغالبة عليه منهما.

الشرح:

من أعظم أسباب انشراح الصدر: إخراج الصفات المذمومة الخفية التي تفسد القلب، ومفسدات القلب الخفية كثيرة منها: اتباع الهوى والأثرة والبطر والبغض واحتقار المسلمين والحسد والحقد والرياء وسوء الظن والكبر والعجب والمكر والكيد والحرص الشديد وطول الأمل والتسويف بالتوبة.

قال ابن القيم رحمه الله في إغاثة اللهفان: "والمقصود: أنَّ زكاة القلب موقوفة على طهارته، كما أنَّ زكاة البدن موقوفة على استفراغه من أخلاطه الرديئة الفاسدة".

وقال أيضًا: " فكذلك القلب إذا تخلَّص من الذنوب بالتوبة، فقد استفرغ من تخليطه، فتخلصت قوة القلب وإرادته للخير، فاستراح من تلك الجواذب الفاسدة، والمواد الردية، فزكا ونما وقوي واشتد، وجلس على سرير ملكه، ونفذ حكمه في رعيته، فسمعت له

وأطاعت، فلا سبيل إلى زكاته إلا بعد طهارته ... ".

ومما يدلُّ على وجوب إخراج دغل القلب من الصفات المذمومة التي توجب ضيقه وعذابه عموم قول الله تعالى: (وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ)، فمن معاني هذه الآية: الأمر بتنقية الأعمال عن المبطلات والمفسدات، والمنقصات من شر ورياء، ونفاق، وعجب، وتكبر، وغفلة، وغير ذلك.

وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم سُئِلَ عَنْ أَفْضَلِ النَّاسِ؟ فَقَالَ: (كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ) فَقَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: (هُوَ التَّقِيُّ، النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ) رواه ابن ماجه.

والصفات المذمومة توجب ضيق القلب وعذابه، ومن ابتلي بها تسبب في إيذاء نفسه وغيره، وقد يُؤذى من غيره بسبب تعرُّضه له، فيصل له ما يوجب ضيقه، وهذه الصفات المذمومة تحول بين العبد وبين حصول البرء، ولا تزيلها إلا محاسبة النفس والتوبة، وفعلُ كلِّ ما يقوّي الإيمانَ في قلب العبد، فإنَّ من أعظم آثار الإيمان تطهير القلب، ثم تزكيته، فالتطهير هو إخراج دغل القلب وفساده، فيكون مهيأ لاستقبال الخير والمداومة عليه.

قال الشيخ ابن باز رحمه الله: (فكلما قوي الإيمانُ في القلب، والحبُّ في الله تعالى، والرغبةُ فيما عنده، والعفو، والصفح؛ زالت تلك المواد التي في القلب من الغلِّ والحقد والضَّغينة التي قد تُؤذيه أذًى كثيرًا وتُضيق عليه حياته، فإذا مَنَّ اللهُ عليه بالاستقامة، والحبِّ

في الله، والبُغض في الله، والعفو عمَّا قد يُصيبه من أخيه، وما يزل به عليه؛ زالت تلك الآثار التي في القلب).

والإنسان لا ينتفعُ بفعل الأسبابَ التي تشرح صدره إلا بإخراج الأوصاف المذمومة من قلبه، فانشراح الصدر مشروط بالبعد عن الوقوع في أمراض القلوب، فالذنوب، ترين على القلب وتغطيه شيئًا فشيئًا، حتى ينطمس نوره، وتموت بصيرته، فتنقلب عليه الحقائق، فيرى الباطل حقًا، والحق باطلًا وهذا من بعض عقوبات الذنوب.

فعن أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ، فَإِنْ هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صَقَلَتْ قَلْبَهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ فَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ: (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)" [المطففين: ١٤] رواه الترمذي والنسائي وغيرهما.

فمن لم يخرج تلك الأوصاف المذمومة من قلبه، فهو مصاب بالران، وهو: ظلمة وجهل يقوم بالقلب يحول بين المرء وبين معرفة الحق، ومن كان هذا حاله لم يحظ من انشراح صدره بطائل، وغاية مَنْ جَمَعَ بين فعلِ ما يوجب انشراح الصدر وفعلِ ما يوجبُ ضيقه: أن يكون لهذا الشخص مادتان تعتوران على قلبه، والمادة: كلُّ شيءٍ يكون مددًا لغيره، والاعتوارُ: أنْ يكون هذا مكان هذا وهذا مكان هذا، والمراد: أنه مرَّةً يميلُ قلبه للمعصية ومرةً يميل للطاعة، وهو للمادة الغالبة عليه منهما، فيصيبه الانشراح والضيق بحسب قربه من ربه وبعده، لكنه لا يحصلُ له الانشراح والسرور التام.

فعلى العبد أن يسعى في إصلاح قلبه وتطهيره، أعظم من سعيه في الاستكثار من نوافل العبادات.

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله في لطائف المعارف: (ونصَّ كثير من الأئمة على: أنَّ ... الاشتغال بتطهير القلوب أفضلُ من الاستكثار من الصوم والصلاة مع غشِّ القلوب ودغلها، وَمَثَلُ من يستكثر من الصوم والصلاة مع دغل القلب وغشِه كَمَثَلِ مَنْ بَذَرَ بذرًا في أرضٍ دَغلة كثيرة الشوك فلا يزكو ما ينبت فيها من الزرع بل يمحقه دغلُ الأرض ويفسده فإذا نُظِّفَتِ الأرض مِنْ دغلها زَكَىَ ما ينبت فيها ونما، قال يحيى بن معاذ: كم من مستغفر ممقوتٍ، وساكتٍ مرحوم هذا استغفر وقلبُه فاجرٌ وهذا سكت وقلبه ذاكرٌ).

وأمراض القلوب من كبرٍ وحسدٍ ورياءٍ وحبِّ شهرةٍ وغير ذلك قد يُبتلى بها طالب العلم المبتئ وغير المبتدئ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه الرد على الشاذلي: (وكثير من المنتسبين إلى العلم يُبتلى بالكِبْر كما يُبتلى كثيرٌ من أهل العبادة بالشرك ولهذا فإن آفة العلم الكِبْر وآفة العبادة الرياء وهؤلاء يُحْرَمون حقيقة العلم كما قال تعالى سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ [الأعراف ١٤٦]).

فعلى طالب العلم أن يعتني بإصلاح قلبه، وأن يحاسب نفسه على هفواتها إنْ رام الثمرات المقصودة من طلبه للعلم.

قال المؤلف رحمه الله:

ومنها: ترك فضول النظر والكلام والاستماع والمخالطة والأكل والنوم، فإن هذه الفضول تستحيل آلاما وغموما وهموما في القلب، تحصره وتحبسه وتضيقه ويتعذب بها، بل غالب عذاب الدنيا والآخرة منها، فلا إله إلا الله ما أضيق صدر من ضرب في كل آفة من هذه الآفات بسهم، وما أنكد عيشه، وما أسوأ حاله، وما أشد حصر قلبه، ولا إله إلا الله ما أنعم عيش من ضرب في كل خصلة من تلك الخصال المحمودة بسهم، وكانت همته دائرة عليها، حائمة حولها، فلهذا نصيب وافر من قوله تعالى: (إنَّ الأبرار لفي نعيم) [الانفطار: ١٣]، ولذلك نصيب وافر من قوله تعالى: (وإنَّ الفجار لفي جحيم) [الانفطار: ١٤]، وبينهما مراتب متفاوتة لا يحصيها إلا الله تبارك وتعالى.

الشرح:

من أسباب انشراح الصدر: ترك المرء الفضول.

والفضولُ: ما لافائدة فيه.

وقد مثَّل المؤلف رحمه الله للفضول الذي يجب تركه حتى ينشرح صدر العبد بستة أمثلة:

الأول: ترك فضول النظر.

والمراد بفضول النظر: النظرُ إلى ما يحرم أو يُكره النظر إليه، وقد تيسر في زماننا غاية التيسر والعياذ بالله.

وفضول النظر أصل البلاء.

قال ابن القيم رحمه الله في بدائع الفوائد: (فإنَّ فضول النظر يدعو إلى الاستحسان ووقوع صورة المنظور إليه في القلب والاشتغال به والفكرة في الظفر به فمبدأ الفتنة من فضول النظر... فالحوادث العظام إنما كلها من فضول النظر فكم نظرة أعقبت حسرات لا حسرة كما قال الشاعر:

كلُّ الحوادث مبداها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فتكت في قلب صاحبها ... فتك السهام بلا قوس ولا وتر).

فعلى العبد أن يعلم أنه مسؤول غدًا في الآخرة عن بصره هل حفظه أم لا؟

قال الله تعالى: (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) فحقيق بالعبد الذي يعرف أنه مسئول عما استعمل به جوارحه التي خلقها الله لعبادته أن يعد للسؤال جوابًا، وذلك لايكون إلا باستعمالها بعبودية الله وإخلاص الدين له وكفها عما نهى الله تعالى عنه.

الثاني: ترك فضول الكلام.

قال ابن القيم رحمه الله في بدائع الفوائد: (وأما فضول الكلام فإنها تفتح للعبد أبوابًا من الشر كلُّها مداخل للشيطان فإمساك فضول الكلام يسدُّ عنه تلك الأبواب كلَّها وكم من حرب جرَّتها

كلمة واحدة...وأكثر المعاصي إنما تولدها من فضول الكلام والنظر وهما أوسع مداخل الشيطان فإن جارحتيهما لا يملَّان ولا يسأمان بخلاف شهوة البطن فإنه إذا امتلأ لم يبق فيه إرادة للطعام وأما العين واللسان فلو تركا لم يفترا من النظر والكلام فجنايتهما متسعة الأطراف كثيرة الشعب عظيمة الآفات وكان السلف يحذرون من فضول النظر كما يحذرون من فضول الكلام وكانوا يقولون: ما شيء أحوج إلى طول السجن من اللسان).

والناس في الكلام طرفان ووسط:

- فمنهم من وقع في فضول الكلام.

فتجاوز الحدَّ الشرعي ووقع في الكلام المحرم، من غيبة ونميمة وكذب وشهادة زورٍ، وتعليم ما لانفع فيه كعلم الكلام، أو تكلَّم في العلم الذي لا يترتب عليه ثمرة، أو وقع في الجدال المذموم والمراء.

- ومنهم من وقع في بدعة التعبُّدِ لله بالصمت.

فمن البدع المحدثة التي أحدثها بعضُ الصوفية بدعة الصمت، وقد ورثوها عن أصحاب الديانات الهندية، وأهل الكتاب، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " فأولئك-الصوفية- يقولون كلما كانت الأعمال أشقَّ على النفس فهي أفضل ثم هؤلاء قد يفضلون الجوع والسهر والصمت والخلوة ونحو ذلك كما يفعل ذلك من يفعله من المشركين الهند وغيرهم ومن النصارى ومبتدعة هذه الأمة"[٠]

وهذه البدعة لها منزلة عند الصوفية، فهي قربة يتعبَّدون لله عز وجل بها، حتى آلت بهم إلى ترك ما أوجب الله تعالى عليهم من مخاطبة

الأهل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونحو ذلك، بل إنَّ الصمت عندهم من القواعد الأربع التي يحتاج إليها المريد، ومن منازل العامة وأرباب السلوك، ومن آداب الخلوة، وفعلهم من أعمال الجاهلية، فقد أنكر أبو بكر الصديق رضي الله عنه على المرأة التي تعبَّدت بالصمت فحجَّت مصمته وبيَّن لها أنَّ فعلها من عمل الجاهلية، كما ورد في حديث قيس بن أبي حازم، قال: دخل أبو بكر على امرأة من أحمس يقال لها زينب، فرآها لا تكلَّم، فقال: «ما لها لا تكلم؟» قالوا: حجت مصمتة، قال لها:«تكلمي، فإن هذا لا يحل، هذا من عمل الجاهلية»، فتكلمت" رواه البخاري.

– وأما أهل الحق فتوسطوا فصمتوا عن كل كلام نهت عنه الشريعة.

فالقاعدة العامة في باب النواهي وجوب الكفِّ عن كل كلام منهي عنه.

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله في جامع العلوم والحكم: "فليس الكلام مأمورا به على الإطلاق، ولا السكوت كذلك، بل لابد من الكلام بالخير والسكوت عن الشر، وكان السلف كثيرا يمدحون الصمت عن الشر، وعما لا يعني لشدته على النفس، وذلك يقع فيه الناس كثيرا، فكانوا يعالجون أنفسهم، ويجاهدونها على السكوت عما لا يعنيهم".

وقد ورد في الحديث: «رحم الله امرأ تكلم فغنم أو سكت فسلم» أخرجه البيهقيُّ في شعب الإيمان، عن أنس بن مالك رضي الله عنه،

وحسنه بطرقه الألباني في: «السلسلة الصحيحة».

وأهل الحق يرون وجوب الصمت عن الكلام المباح الذي يؤدِّي إلى الكلام بباطل.

ومن القواعد الفقهية المقرَّرة: أنَّ (الوسائل تعطى أحكام المقاصد).

والوسائل: جمع وسيلة، وهي الطّريق الموصلة إلى المقصود.

والمقاصد: جمع مقصد وهو المطلب والغاية من الفعل.

فوسيلة الحرام محرّمة كحرمة الحرام الموصلة إليه، وهذه القاعدة تبين أن هذا المباح إذا أدى فعله إلى أمرٍ من الأمور المحرمة فإنه يكون ممنوعًا.

والصمت يحرم إذا تعيَّن الكلام، ويتعين الكلام في تعليم الناس أمر دينهم، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما لم يكن في الإنكار باللسان مفسدة، وفي الاتيان بالأذكار الواجبة ونحو ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " والصمت عما يجب من الكلام حرام سواء اتخذه دينًا أو لم يتخذه".

ولا بأس بالكلام المباح بشرط أنْ لا يصل إلى حدِّ الإفراط، فقد يجرُّ إلى قسوة القلب.

الثالث: ترك فضول الاستماع.

فلا يجوز للمرء أن يتعمَّد الاستماع إلى ما يضرُّه في قلبه ودينه، ومنه الاستماع إلى الحرام بأنواعه المتعلق بالشهوات أو الشبهات، إلا إذا تضمَّن ردَّ المسموع الممنوع وإبطالَه ممن له قدرة على إبطاله.

وثمة فرقُ بين الاستماع والسماع، فالاستماع: لا يكون استماعًا

إلا إذا توفر فيه القصد، أما السماع: فإنه قد يكون بقصد أو بدون قصد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وَأما مَالا يَقْصِدهُ الْإِنْسَان من الِاسْتِمَاع فَلَا يَتَرَتَّب عَلَيْهِ نهى وَلَا ذمّ بِاتِّفَاق الآئمة وَلِهَذَا إِنَّمَا يَتَرَتَّب الذَّم والمدح على الِاسْتِمَاع لَا على السماع).

فعلى العبد أن يعلم أنه مسؤول غدًا في الآخرة عن سمعه هل حفظه أم لا؟

قال الله تعالى: (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) فالسمع مسؤول عنه صَاحِبه مَاذَا فَعَلَ بِهِ؟

الرابع: ترك فضول المخالطة.

قال ابن القيم رحمه الله في بدائع الفوائد: (فضول المخالطة هي الداء العضال الجالب لكل شر وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة وكم زرعت من عداوة وكم غرست في القلب من حزازات تزول الجبال الراسيات وهي في القلوب لا تزول ففضول المخالطة فيه خسارة الدنيا والآخرة.

وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة ويجعل الناس فيها أربعة أقسام متى خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يميز بينهما دخل عليه الشر:

أحدها: من مخالطته كالغذاء لا يُستغنى عنه في اليوم والليلة فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة ثم إذا احتاج إليه خالطه هكذا على الدوام

وهذا الضرب أعز من الكبريت الأحمر وهم العلماء بالله تعالى وأمره ومكايد عدوه وأمراض القلوب وأدويتها الناصحون لله تعالى ولكتابه ولرسوله ولخلقه فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كله.

القسم الثاني: من مخالطته كالدواء يحتاج إليه عند المرض فما دمت صحيحًا فلا حاجة لك في خلطته وهم من لا يستغنى عنه مخالطتهم في مصلحة المعاش وقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم **من القسم الثالث: وهم: من مخالطته كالداء** على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه فمنهم من مخالطته كالداء العضال والمرض المزمن وهو من لا تربح عليه في دين ولا دنيا ومع ذلك فلا بدَّ من أن تخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما فهذا إذا تمكنت مخالطته واتصلت فهي مرض الموت المخوف، ومنهم من مخالطته كوجع الضرس يشتد ضربًا عليك فإذا فارقك سكن الألم ومنهم من مخالطته حمى الروح وهو الثقيل البغيض العقل الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها...

القسم الرابع: من مخالطته الهلك كله ومخالطته بمنزلة أكل السم فإن اتفق لأكله ترياق وإلا فأحسن الله فيه العزاء وما أكثر هذا الضرب في الناس لا كثرهم الله وهم أهل البدع والضلالة الصادون عن سنة رسول الله الداعون إلى خلافها (الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا)، فيجعلون البدعة سنة والسنة بدعة والمعروف منكرًا

والمنكر معروفًا إنْ جرَّدت التوحيد بينهم قالوا تنقصت جناب الأولياء والصالحين وإن جردت المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: أهدرت الأئمة المتبوعين وإن وصفت الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير غلو ولا تقصير قالوا أنت من المشبهين وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله من المنكر قالوا: أنت من المفتنين وإن اتبعت السنة وتركت ما خالفها قالوا: أنت من أهل البدع المضلين وإن انقطعت إلى الله تعالى وخليت بينهم وبين جيفة الدنيا قالوا أنت من المبلسين وإن تركت ما أنت عليه واتبعت أهواءهم فأنت عند الله تعالى من الخاسرين وعندهم من المنافقين فالحزم كل الحزم التماس مرضاة الله تعالى ورسوله بإغضابهم وأن لا تشتغل بإعتابهم ولا باستعتابهم ولا تبالي بذمهم ولا بغضبهم فإن عين كمالك كما قال:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص ... فهي الشهادة لي بأني فاضل).

الخامس: ترك فضول الأكل.

قال ابن القيم رحمه الله في بدائع الفوائد: (وأما فضول الطعام فهو داع إلى أنواع كثيرة من الشر فإنه يحرك الجوارح إلى المعاصي ويثقلها عن الطاعات وحسبك بهذين شرا فكم من معصية جلبها الشبع وفضول الطعام وكم من طاعة حال دونها فمن وقى شر بطنه فقد وقى شرًا عظيمًا والشيطان أعظم ما يتحكم من الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام ... ولو لم يكن في الامتلاء من الطعام إلا أنه يدعو إلى الغفلة عن ذكر الله ساعة واحدة جثم عليه الشيطان ووعده

ومنَّاه وشهَّاه وهام به في كل وادٍ فإن النفس إذا شبعت تحركت وجالت وطافت على أبواب الشهوات وإذا جاعت سكنت وخشعت وذلت).

فعلى العبد أن يقتصر في طعامه وشرابه على ما يقيم به صلبه ويعينُه على أداء عبادته.

وقد جاء الحث على ذلك في حديث المِقْدَامِ بْنَ مَعْدِي كَرِبَ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، حَسْبُ الْآدَمِيِّ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ غَلَبَتْ الْآدَمِيَّ نَفْسُهُ، فَثُلُثٌ لِلطَّعَامِ، وَثُلُثٌ لِلشَّرَابِ، وَثُلُثٌ لِلنَّفَسِ" رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وهذا التقدير النبوي من أنفع شيء للبدن والقلب؛ لأنَّ البطن إذا امتلأ من الطعام ضاق عن الشراب فإذا ورد عليه الشراب ضاق عن النَفَس وعرضَ له الكربُ والتعب بحمله وصار بمنزلة الحاملِ حِمْلاً ثقيلاً، هذا إلى ما يلزم من فساد القلب وقسوته وتخاذل الجوارح عن الطاعات ونحوها وانبعاثها ويحركها إلى الشهوات ولذلك قيل: فإنَّ الداءَ أكثرَ ما تراه ... يكونُ من الطّعام أو الشَّرابِ.

السادس: ترك فضول النوم.

مَنْهَجُ السَّلَفِ في النَّوْمِ كَانَ قَصْدًا في اعْتِدَالٍ، فَلا يَنَامُوْنَ تَكَثُّرًا ولا تَشَهِّيًا، بَلْ يَنَامُوْنَ إذَا غَلَبَهُمُ النُّوْمُ وجَثَمَ، وإذَا نَامُوا أخَذُوا حَظًّا مِنَ الكِفَايَةَ بِقَدْرِ مَا يُعِينَهُم عَلى عَمَلِ الدِّينِ والدُّنْيَا، وهَذَا مَا نصَّ عَلَيهِ ابنُ قُدَامَةَ المَقْدِسِيُّ رَحِمَهُ الله في مُخْتصَرِ مِنْهَاجِ القَاصِدِينَ حيث قال:

"ويَنْبَغِي أنْ لا يَنَامَ حَتَّى يَغْلِبَهُ النَّوْمُ، فَقَدْ كَانَ السَّلَفُ لا يَنَامُوْنَ إلَّا غَلَبَةً".

وترك فضول النوم يعين على المحافظ على الوقت وعلى العناية بالصلوات فرضها ونفلها.

وإذا زاد النوم عن حاجة الجسم ورَّث الكسل والخمول والأمراض وفوَّتَ على العبد مصالح الدنيا والآخرة.

قَالَ وَهْبُ بنُ مُنبِّهٍ رَحِمَهُ الله: "لَيسَ مِنْ بَنِي آدَمَ أحَبُّ إلى شَيطَانِهِ مِنَ الأكُوْلِ النَّوَامِ! ".

وفضول النظر والكلام والاستماع والمخالطة والأكل والنوم، لها آثار سيئة قال عنها ابن القيم رحمه الله: (فإنَّ هذه الفضول تستحيل آلامًا وغمومًا وهمومًا في القلب، تحصره وتحبسه وتضيقه ويتعذب بها، بل غالب عذاب الدنيا والآخرة منها).

تقدَّم أنَّ الفضولَ: ما لا فائدة فيه، ففضول النظر والكلام والاستماع والمخالطة والأكل والنوم عاقبتها ومآلها إلى حصولُ الآلام للمرء، والألمُ: هو الشعور بما يضاد اللذة سواء أكان شعورا نفسيًا أم خلقيًا، ومآلها إلى حصول الغم والهم في القلب، والغمُّ كرب يحدث للقلب بسبب ما حصل، والهم ينشأ عن الفكر فيما يتوقع حصوله مما يتأذى به المرء، وقيل: الهم والغم بمعنى واحد وقال الكرماني: الغمُّ يشمل جميع أنواع المكروهات.

فهذه آثار سيئة تحصل للقلب بسبب الوقوع في ما لا فائدة فيه فيحصل للقلب الحصر وهو الضيق ويكون قلبه محبوسًا في مكان

ضيق لا يتجاوزه إلى ما فيه السعةُ له، وتضيّقُ صدره وتورثه الألم والحزن، وتورِّثه العذابَ والعقاب والنكال والمشقةَ على النفس.

والوقوع في الفضول المحرم معصية والمعاصي لها شؤمها فغالب عذاب الدنيا والآخرة بسبب الوقوع في الفضول الممنوع.

ومن صور عذاب الدنيا الذي يناله من وقع في الفضول المحرم: الآم وهموم وغموم القلب، ومنها ما يترتب من تعزيرات وحدود يستحقها من تجاوز الشرع فوقع في قذف وسب وشتم وشهادة زور ونحو ذلك، ومنها: ما يحصل للعصاة من تسليط المصائب والبلايا عليهم تأديبًا لهم، حتى يتوبوا إلى الله ويرجعوا إلى صراطه المستقيم.

ومن صور عذاب الآخرة التي قد ينالها من وقع في الفضول المحرم: ما قد ينال مرتكب الكبيرة من عصاة الموحدين في القبر من العذاب وما قد يناله في نار الآخرة من العذاب دون الخلود فيها، وما يحصل له من شدائد القيامة وأهوالها.

قال ابن القيم رحمه الله: (فلا إله إلا الله ما أضيق صدر من ضرب في كل آفة من هذه الآفات بسهم، وما أنكد عيشه، وما أسوأ حاله، وما أشد حصر قلبه، ولا إله إلا الله ما أنعم عيش من ضرب في كل خصلة من تلك الخصال المحمودة بسهم، وكانت همته دائرة عليها، حائمة حولها، فلهذا نصيب وافر من قوله تعالى: (إنَّ الأبرار لفي نعيم) [الانفطار: ١٣]، ولذلك نصيب وافر من قوله تعالى: (وإنَّ الفجار لفي جحيم) [الانفطار:

١٤]، وبينهما مراتب متفاوتة لا يحصيها إلا الله تبارك وتعالى).

المعنى: أنه لا يستوي من وقع في فضول النظر والكلام والاستماع والمخالطة والأكل والنوم، وبين من سلم من هذه الآفات، فمن وقع فيها ضاق صدره، ونكد عيشه، والنكدُ: كلُّ شيءٍ جرَّ على صاحبه شَرَاً، وما أسوأ حاله، وما أشد ضيق قلبه، ومن سلم من هذه الآفات عاش في نعيم وسرور وكانت همته دائرة على فعل ما يجلب السرور للقلب، حائمة حول هذه الهمة يدور معها حيث دارت، فللسالم من الوقوع في الفضول الممنوعة نصيب وافر من قوله تعالى: (إنَّ الأبرار لفي نعيم) [الانفطار: ١٣]، وللآخر الذي وقع في فضول النظر والكلام والاستماع والمخالطة والأكل والنوم نصيب وافر من قوله تعالى: (وإنَّ الفجار لفي جحيم) [الانفطار: ١٤]، وبين السالم والمخالف مراتب متفاوتة في الدنيا والبرزخ والآخرة لا يحصيها إلا الله تبارك وتعالى.

قال ابن القيم رحمه الله في كتابه الداء والدواء: (ولا تحسب أن قوله تعالى: [إنَّ الأبرار لفي نعيم – وإنَّ الفجار لفي جحيم] [سورة الانفطار: ١٣ – ١٤] مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط بل في دورهم الثلاثة كذلك – أعني دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار – فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب؟ وأي عذاب أشد من الخوف والهم والحزن، وضيق الصدر، وإعراضه عن الله والدار الآخرة، وتعلقه بغير الله، وانقطاعه عن الله، بكل واد منه شعبة؟ وكل شيء تعلق به

وأحبه من دون الله فإنه يسومه سوء العذاب).

قال الشيخ ابن باز رحمه الله: (هذا إنما يحسّ به مَن عرف الواقعَ، مَن جرَّب الواقعَ: من فضول النظر، وفضول الكلام، وفضول المخالطة، وفضول الأكل والشرب، وفضول النوم، كل ذلك لها آثار في القلوب: تُضيقها، وتُؤذيها، وتُحرجها، ومتى رزق اللهُ العبدَ السَّلامة من ذلك صار كلامه محدودًا، وهكذا نظره؛ يتحفظ من النَّظر إلى ما حرَّم الله عليه، وهكذا أكله وشربه ونومه ومُخالطته، كلها محدودة، يتحرى فيها ما ينفعه، ويتباعد عمَّا يضرّه، فإنَّ هذا يُسبب له راحةً في قلبه، وانشراحًا وطُمأنينةً وأنسًا بالله وطاعته).

قال المؤلف رحمه الله:

والمقصود أنَّ رسول الله ﷺ كان أكمل الخلق في كل صفة يحصل بها انشراح الصدر، واتساع القلب، وقرة العين، وحياة الروح، فهو أكمل الخلق في هذا الشرح والحياة وقرة العين مع ما خص به من الشرح الحسي.

وأكمل الخلق متابعة له، أكملهم انشراحًا ولذة وقرة عين.

وعلى حسب متابعته ينال العبد من انشراح صدره وقرة عينه ولذة روحه ما ينال.

فهو ﷺ في ذروة الكمال من شرح الصدر ورفع الذكر ووضع الوزر، ولأتباعه من ذلك بحسب نصيبهم من اتباعه، والله المستعان.

وهكذا لأتباعه نصيب من حفظ الله لهم، وعصمته إياهم، ودفاعه عنهم، وإعزازه لهم، ونصره لهم، بحسب نصيبهم من المتابعة، فمستقل ومستكثر، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه.

الشرح:

من أعظم أسباب انشراح الصدر: حسنُ اتِّباع النبي صلى الله عليه وسلم؛ فمن تأسَّى به فقد تأسَّى بأشرح الناس صدرًا.

ونبينا عليه الصلاة والسلام وصفه ربه عزَّ وجل بقوله: (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)، أي: عاليًا به، مستعليًا بخُلُقِكَ الذي منَّ الله

عليك به.

وحاصل خلقه العظيم، ما فسَّرته به أمُّ المؤمنين، عائشةُ رضي الله عنها لمن سألها عنه، فقالت: "كان خلقه القرآن" رواه أحمد.

أي: ما تضمنه من إيقاع الفضائل والمكارم والنهي عن أضدادها، فكان لنبينا صلى الله عليه وسلم من خصال الأخلاق أكملِها وأجلها، فهو أكمل الخلْقِ في كلِّ صفة يحصل بها انشراح الصدر، واتساعُ القلب وانفساحه، وقرة العين وأمنها وسرورها، وحياة الروح، ولذتها ونعيمها وابتهاجها فهو أكمل الخلق في هذا الشرح والحياة وقرة العين.

وقد قال الله تعالى فيه: (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)، وهذا استفهام بمعنى التَّقرير، يعني: قد شرحنا لك صدرك، ونَوَّرناهُ وجَعْلنَاهُ فَسيحًا رَحيبًا وَاسِعًا.

فالله تعالى قد شرح صدر نبيه ﷺ لدينه، وحبَّبه إليه، مع ما خُصَّ به من الشرح الحسيّ كما دلَّ عليه حديث أَنس بن مالك رضي الله عنه قالَ: كانَ أبو ذَرٍّ يحدِّثُ أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قالَ: (فُرِجَ عن سَقفِ بيْتي وأنا بمكَّةَ، فنزَلَ جِبريلُ، ففَرَجَ صَدري، ثم غسَلَه بماءِ زَمزمَ، ثم جاءَ بطَسْتٍ من ذهبٍ، ممتلىء حِكمةً وإيمانًا، فأَفرَغه في صَدْري، ثم أَطْبَقَه...) رواه البخاري.

وأكمل الخلق متابعة للنبي ﷺ، أكملُهم انشراحًا ولذة وقرة عين، وعلى حسب متابعته ينال العبد من انشراح صدره وقرة عينه ولذة روحه ما ينال، فهو ﷺ في ذروة الكمال من شرح الصدر ورفع الذكر

ووضع الوزر، ولأتباعه من ذلك بحسب نصيبهم من اتباعه، والله المستعان، فإذا اتبعوا نبيهم ﷺ كملت تربيتهم، وتمت عليهم النعمة، وهدوا لأحسن الأعمال والأخلاق ومعاليها ونالهم انشراح الصدر بحسب قربهم من الاتِّباع.

وحسن الاتّباع للنبي ﷺ يثمر ثمراتٍ عظيمة منها:

أنَّ لأتباع النبي ﷺ نصيب من حفظ الله لهم، وعصمته إياهم، ودفاع الله تعالى عنهم، وإعزازه لهم، ونصره لهم، بحسب نصيبهم من المتابعة، فمستقل ومستكثر.

قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ)، أي هو وحده كافيك وكافي من اتبعك من المؤمنين.

وهذا وعد من الله لعباده المؤمنين المتبعين لرسوله، بالكفاية والنصرة على الأعداء، فإذا أتوا بالسبب الذي هو الإيمان والاتباع، فلا بدَّ أنْ يكفيهم ما أهمَّهم من أمور الدين والدنيا، وإنما تتخلف الكفاية بتخلف شرطها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (فكلُّ من اتَّبع الرسول ﷺ فالله كافيه وهاديه وناصره ورازقه)، كما قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)، فهذا إخبار ووعد وبشارة من الله، للذين آمنوا، أنَّ الله يدافع عنهم كل مكروه، ويدفع عنهم كل شر -بسبب إيمانهم- من شر الكفار، وشر وسوسة الشيطان، وشرور أنفسهم، وسيئات أعمالهم، ويحمل عنهم عند نزول المكاره، ما لا يتحملون، فيخفف عنهم غاية التخفيف، وكل مؤمن له من هذه المدافعة والفضيلة

بحسب إيمانه، فمستقل ومستكثر، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه.

اللهم اشرح صدورنا، واهدنا وسددنا، ووفقنا إلى ما تحبه وترضاه، وأعنَّا ولا تعن علينا واختم بالصالحات أعمالنا وآجالنا، وأعذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

والحمد لله رب العالمين

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.